

# الفصل الأول

## الرياض في منتصف الصيف

١- الصوم العظيم في رمضان

٢- نذر وتحركات



## الفصل الأول

### الرياض في منتصف الصيف

#### ١- صوم رمضان الكريم

لقد كان في اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو عام (١٩١٨م)، أن دخلنا العاصمة الوهابية مرة أخرى عند عودتنا من الجنوب، وكان هو اليوم الخامس عشر طبقاً للحساب الرسمي من شهر رمضان؛ لأن الهلال الجديد قد شوهد في القصيم قبل أن نراه بليلة في مرتفعات طويق حيث تم تعديل التقويم الوهابي حسب فتوى من السلطات الدينية<sup>(١)</sup>. ولم يمض من شهر التوبة إلا نصفه، وينظر أهل الرياض المنهكون إلى ما لاقوه من عنت في الأسبوعين الماضيين معتبرين إياها مقياساً لما سوف يعانون منه، فالحق أن الأسوأ لم يأت بعد، إذ إن (لدغة) رمضان تأتي في آخره في الجزيرة العربية<sup>(٢)</sup>.

وذاث مرة من عهدٍ بعيدٍ جاء شهر رمضان في هجير أيام منتصف الصيف، وكان المسلم الورع أينما وجد عليه أن يشمر عن ساعديه ليواجهه، بكل ما أوتي من قوة التحرر من الانفعال السلبي أو الإيجابي، صعوبة الاختبار القاسية في تجربة لم يُقصد منها ربما أبداً أن تكون أكثر من مجرد اختبار معقول لمعتنقي الدين الحق

(١) المؤسسات الدينية وبخاصة مجلس القضاء الأعلى هو المسؤول عن الإعلان عن مواعيد الأعياد، وبداية رمضان، والحج الأكبر. للمزيد، انظر: عبدالله بن محمد بن عائض الزهراني. تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي (مكة المكرمة، مطابع بهادر، ١٤١٩هـ) ج١، ص ١٢ - ٩٥ (لابن جريس).

(٢) هذه وجهة نظر فيلبي، أما الصوم في الجزيرة العربية فيتقبله الناس بصدر رحب لما جعلوا عليه من التدين والطاعة لله عز وجل. أما الجو فهو يختلف من مكان لآخر، والمناطق الحارة مثل الرياض وغيرها قد تكون أشد على الصائمين من غيرها. (ابن جريس).

تحت الظروف السائدة في وقت ابتدائها من قبل الرسول (صلى الله عليه وسلم)<sup>(١)</sup> المُعَلِّم. لقد كان شهراً من شهور الشتاء<sup>(٢)</sup> أن اختاره الرسول (صلى الله عليه وسلم)<sup>(٣)</sup> ربما عن عدم اهتمام بالعيوب المتأصلة في التقويم القمري ليكون أول رمضان، وعلاوة على ذلك فقد سنَّ هذا للجزيرة العربية، وربما لم يضع في باله أن ما سنَّه سوف يتجاوز حدودها على الإطلاق<sup>(٤)</sup>، ولكن من المؤكد أنه كان يجهل أن فترة النهار تختلف باختلاف خطوط الطول. ولقد سألت ذات مرة ابن سعود عندما كان يشتكي من قسوة الامتحان في مثل هذا الفصل من السنة حيث قلت: ماذا كنت ستفعل إذا كنت في القطب الشمالي، حيث لا تغرب الشمس في هذا الفصل أبداً؟ ولبرهة نظر إليّ باستنكار ظاناً أنني قد تجرأت على المزح على حساب الإسلام، ولكن عندما وجدني جاداً استشهد بالكتاب الكريم كدليل كاف على شروق الشمس وغروبها يومياً في العالم كله. واستطرد قائلاً: «ولكن إذا وجد المسلم الحق نفسه خلال هذا الشهر في مكان لا تغرب فيه الشمس، فعليه أن يصوم اثنتي عشرة ساعة من كل أربع وعشرين، ويعتبر الاثنتي عشرة ساعة الباقية كما لو كانت ساعات الليل". يبدو أن هذا الحل للمشكلة يتوافق بصعوبة مع التفسير الحرفي للأحكام القرآنية<sup>(٥)</sup>، ولا أعرف كيف سيتعامل معها علماء الدين البارزون، ولكن ابن سعود، الذي كان ضالماً في الأمور المتعلقة بالدين، كان قانعاً بقصر فضوله وحب اطلاعه على الموضوعات التي تقع في حدود إدراكه.

(١) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع (ابن جريس).

(٢) ديسمبر (٦٢٢م). انظر: حياة محمد، للسير موير (Sirw. Muir) ص ١٩٢ - ١٩٣. (فيلبي).

(٣) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع. (ابن جريس).

(٤) لقد أخطأ فيلبي في شروحاته هنا لمفهوم شهر رمضان، فالذي فرض الصوم على المسلم هو الله (عز وجل وليس الرسول (صلى الله عليه وسلم). كما أن الصوم وغيره من العبادات مفروضة على كل المسلمين داخل الجزيرة العربية وخارجها، ثم إن دين الإسلام هو لعموم سكان الأرض. وما يذكر فيلبي هنا من أقوال ليس غريباً من المستشرقين فقد قالوا روايات وافتراءات كثيرة على الإسلام وشرائهم وعلى عبادات المسلمين. ومن يرجع إلى دراساتهم المختلفة فإنه سوف يجدها مليئة بهذه المغالطات. (ابن جريس).

(٥) ليس لفيلبي الحق أن يفتي بما لا يعلم، وبخاصة في قضايا الشرع والأحكام الفقهية. (ابن جريس).

وكان بين الفينة والأخرى يُوجّه إليّ أسئلة واستفسارات تتعلق بمختلف دول العالم. وكان وضع الأمراء الهنود وظروفهم المادية هما موضوعه المفضل، وعلاقتنا مع أفغانستان موضوعاً مفضلاً هو الآخر، وكرم البريطانيين مع ملك الحجاز كان مصدراً دائماً لعدم الارتياح، ولكنه أحياناً قد يذهب في السؤال بعيداً. فذات مرة، عندما كان أحمد بن ثنيان حاضراً، سألتني: ماذا كانت لغة الأمريكيان؟ فقلت له أن لغتهم هي الإنجليزية. فقال: «كيف يكون ذلك هل هم من أصل إنجليزي؟ كنت أظن أنهم من أصل هندي». وشرحت له من هم الهنود الحمر وعبارة وست إنديز West Indies أي جزر الكاريبي رداً على سؤاله، ثم سألته إن كان الأمريكيون قد ذكروا في القرآن. فقال أحمد بلا تردد «نعم» وتدخل ابن سعود لإيقاظه عندما قلت إن (العالم الجديد) لم يكن قد اكتشف بعد زمن محمد ﷺ. وقال: «ولكن الله يعلم كل شيء» و «أن القرآن هو كلمته». وكان هذا مصدراً للاضطراب إلى حد، ما حيث لم أستطع أن أخفي حيرتي إلا بقولي إن الله لن يكشف بالضرورة كل علمه لذوات فانية. وتعلق أحمد بهذه القشة بصورة ذكية، واعترف أن أمريكا لم يرد ذكرها صراحة، واستشهد بنص غامض ولكنه شامل كدليل غير مشكوك فيه يهدف إلى شمول جميع الدول التي لم تكن معروفة للعالم في تلك الأيام. واندفعت فوراً في نصب شرك آخر، وسألته: «هل تعلم أنك تستطيع أن تصل إلى أمريكا إذا سافرت غرباً أو شرقاً؟» وهنا أصيب ابن سعود بالحيرة، ولكن أحمد ذكره «بكبرية» أي كروية الأرض. ولم يكن ذلك كافياً لإقناعه بكمال قواي العقلية. وعندها أكدت له أنه بالسفر شرقاً أو غرباً حول العالم فسوف يأتي مرة أخرى إلى نقطة الانطلاق التي بدأ منها دون أن يرجع من حيث أتى. فقال بصوت عالٍ: "والله لن أرهق ذهني بمثل هذا التفكير، لأن عندي ما يكفي من العمل لحكم هذا البلد بعدالة وورع خوفاً من الله إلى أن يحين أجلي. من المؤكد أنه لا يوجد فرق بين البشر والحيوانات، إلا أن البشر لديهم رؤية واعية عن الإله والدين ومستقبل الحياة، أما فيما عدا ذلك فهم متشابهون، ولهم

أعين، وأنوف، وأفواه، وأسنان، وأطراف، وكلهم يأكلون ويشربون ويتزوجون وينامون ويستيقظون بنفس الطريقة». وسألته، «هل رأيت قرداً قطاً؟» فردّ قائلاً: «لا»، «ولكن ذات مرة في الكويت رأيت قطاً فارسياً». بيد أن أحمد، على كل حال، قد شاهد القرد في حديقة الحيوان بالقاهرة، واتفق معي على أنها تحمل قدراً ملحوظاً من التشابه البدني مع الإنسان، وهكذا انتقلنا للحديث عن مصر وأمجادها الماضية، وعن الأهرامات العظيمة وما شاكلها<sup>(١)</sup>.

مثلما يكون "عيد الفصح" لليهود، ومثلما يكون الصوم الكبير (Lent) للمسيحيين، و"محرم" للشيعة، و"الحج الأكبر" لأهل السنة، فهكذا يكون "رمضان" للوهابيين، موسماً لا يعلى عليه في إظهار صدق عقيدتهم بشكل عام<sup>(٢)</sup>. فمن شروق الشمس حتى غروبها لا يجوز لأحد أن يأكل أو يشرب أو يمارس جماعاً جنسياً، والتدخين بالطبع محرّمٌ في جميع الأوقات على الوهابيين، والمشروبات الكحولية لا مكان لها بينهم ومع ذلك، فهم في هذه الأمور يشتركون مع إخوانهم المسلمين من جميع المذاهب، ولو بصورة رمزية على الأقل<sup>(٣)</sup>. ويختلفون عن الآخرين في التزامهم الصارم بالعقيدة، التي يقر بها أقرانهم ولكنهم لا يتبعونها دائماً، ويختلفون أيضاً في

(١) هذا النقاش من الملك عبدالعزيز مع فيليبي يدل على بعد نظره، وحبه للاستزادة من المعارف والعلوم عن العالم المعاصر آنذاك. وللمزيد عن شخصية الملك عبدالعزيز وحكته، انظر: عبدالله بن عبدالمحسن التركي. الملك عبدالعزيز أمة في رجل (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٢٦ وما بعدها، إبراهيم بن عبدالله السماري. الملك عبدالعزيز الشخصية والقيادة (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ربما جهل فيليبي بمكانة رمضان الدينية جعله يقارن بينه وبين بعض الأعياد عند اليهود والنصارى وكذلك الشيعة من المسلمين، مع العلم أن شهر رمضان أحد أركان الإسلام الخمسة، ثم إنه ليس للوهابيين وحدهم وإنما هو لجميع المسلمين من سنة وشيعة وغيرهم ممن يدين بدين الإسلام (ابن جريس).

(٣) هذا التحريم للدخان والمشروبات الكحولية ليست من صنع وتحرير الوهابيين كما قال فيليبي، وإنما هي أوامر من رب العالمين في القرآن، فالدخان من الخبائث، والخبث من المحرمات. أما المسكرات كالخمر وغيرها فهي محرمة بنص قرآني. (ابن جريس).

أنهم يزجون ساعات النهار الطويلة المملة بالصلاة، والتفكير والتأمل، وقراءة القرآن الكريم؛ لأن «الصلاة خير من النوم»، وهم فوق ذلك يختلفون عن أقرانهم في الطريقة التي يقضون بها ساعات الليل القصيرة. «وليلة القدر خير من كل الليالي»، ولهذا السبب فإن ليالي شهر رمضان أفضل من ليالي أي شهر آخر في السنة، مثلما أن الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة، أيام الحج الأكبر، أشد فضلاً من بقية الأيام، وهكذا سار بنا الحديث في دوائر تزداد ضيقاً تجاه الظاهرة الرئيسية في رمضان، أي «ليلة القدر» نفسها، وهي أن الليالي العشر الأخيرة من الشهر أفضل من باقي الشهر، بينما ليالي الأيام الفردية - من الحادي والعشرين حتى التاسع والعشرين إذا أمكن معرفتها بتأكيد مطلق تكون أفضل من الأخريات.

والفضل الخاص «ليلة القدر» التي تعادل في أهميتها عندنا تقريباً (يوم البعث) ينبثق من حقيقة أنه في هذه الليلة يعتقد الله تعالى أكبر عدد من الناس كل عام من عذاب جهنم. على أن الميعاد الدقيق لهذه الليلة العظيمة من الشهر المقدر لم يُكشف أبداً للنبي، الذي، تبعاً لذلك، لم يستطع أن ينقل لأتباعه معلومات أشد دقة أكثر من احتمال أنها قد تقع في اليوم التاسع والعشرين، على الرغم من أنها قد تقع في أي ليلة من الليالي الأربع التي تسبقها<sup>(١)</sup>. ويزداد الشك عندما نلم بحقيقة أن الشهور القمرية، التي تعتمد بداياتها على الظهور الفعلي للقمر أمام العين البشرية المجردة، تتعرض دائماً الخطأ في حساب عدد أيامها الكلية وذلك في حدود يوم واحد، بشكل أو آخر. وهكذا فإن اليوم العشرين قد يكون هو اليوم الواحد والعشرين أو العكس صحيح،

(١) ما يشير إليه فيلبي عن أهمية وفضل شهر رمضان وعشر ذي الحجة، ثم مشاهدته المسلمين يقضون ليلتهم ونهارهم خلال هذه المواسم في العبادة، ربما جعله يستغرب من هذه التصرفات دون أن يدرك أن هذه تعاليم ربابية وردت في القرآن والسنة. ونستطيع القول أن فيلبي كان معذور لأنه يدون معلوماته هذه في أيامه الأولى من مجيئه إلى جزيرة العرب. (ابن جريس).

والطريقة الوهابية<sup>(١)</sup>، حتى تكون في الجانب الآمن، تفرض برنامجاً خاصاً من العمل الديني النشط في كل ليالي الشهر بدءاً من الليلة العشرين حتى نهاية الشهر. وهكذا، إذا ظهرت ليلة القدر فجأة وعلى حين غرة، فسوف تجد جماعة المصلين الوهابيين دائماً مستعدين، وهم منهمكون في أداء الصلاة والعبادة، ليدخلوا أبواب الجنة.

إن الدخول السنوي للأرواح، أرواح أولئك الذين ماتوا من قبل وحلوا مؤقتاً في جهنم يتطهرون من الذنوب التي أفسدت القيمة الأساسية للإيمان الحق، يوحى على نحو يثير الفضول بفكرة التطهر عند الكاثوليك. وربما ينفرد بالتزامه لذكرى سنوية لحدثٍ لم يأت بعد، والذي، على الرغم من أنه يمكن تحديد تاريخه في السنة القمرية في نطاق الحدود الضيقة المذكورة أعلاه والمقدرة بالنسبة لعام وقوعه منذ بدء الزمان، سوف يقع بلا إنذار، وفي تلك الليلة سيكون هناك التجمع النهائي في الجنة لجميع المؤمنين الصادقين، الأموات والأحياء، ربما باستثناء هؤلاء من الأحياء الذين قد يُقبض عليهم وهم يرتكبون ذنباً من الذنوب أو يهملون أوامر الله<sup>(٢)</sup>.

إن النظرية الكاملة للعقيدة الوهابية<sup>(٣)</sup> تبدو واضحة من الظاهر أنها تركز على الالتزام بشعائر رمضان، وإني لأعد نفسي محظوظاً لأنني نلت ميزة مشاهدتهم عن كثب في العاصمة الوهابية نفسها،<sup>(٤)</sup> وفي فصلٍ ساهم في جعل الشعيرة المفروضة على المؤمنين امتحاناً قاسياً لمدى قوتهم وطاقاتهم، البدنية والروحية، لتحمل ما قد

(١) الوهابية ليست طريقة ولا مذهباً كما يقول فيلبي أو غيره من المستشرقين، ولكنها نظام سياسي وديني يسير على منهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. للمزيد من التفاصيل عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، انظر: حمد بن حجر آل أبو طامي. الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عقيدته السلفية الاصلاحية وثناء العلماء عليه (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٣٥ وما بعدها، محمد بن عبد الله السكاكر. محمد بن عبد الوهاب، حياته وآثاره، دعوته السلفية. (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٢٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) فيلبي يتكلم بهذه الصيغة لأنه لا يعرف ولا يشعر وقتها بوقع الدين والروحانيات على قلب ونفس المسلم. (ابن جريس).

(٣) العقيدة الوهابية: مصطلح خاطئ عند فيلبي وغيره ممن هم على شاكلته والوهابيون كما يذكرهم هذا الرحالة وغيره ليس لهم عقيدة تميزوا بها، وإنما عقيدتهم هي عقيدة السلف الصالح. (ابن جريس).

(٤) يقصد بالعاصمة الوهابية، أي مدينة الرياض. (ابن جريس).

يتدبرونه. وخلال هذا الامتحان برز شخص منهم بروزاً شامخاً، مثلاً يُحتذى في القوة والحماسة لأتباعه الذين يتأوهون بكل ما في الكلمة من معنى تحت وطأة تكفير الذنوب في تلك الأيام القاسية، لأن ابن سعود نفسه، على الرغم من أنه لا يعقد المجلس العام لمقابلة الناس بصورة منتظمة مثل الأيام الأخرى، لم يفشل أبداً في الجلوس للناس مرتين في اليوم، مرة بعد استيقاظه مباشرة من نومه الصباحي، والأخرى بعد صلاة العصر، لكي ينهي معاملات عامة الناس، ولكي يتلقى الشكاوى وعرائض الالتماس والمطالب وما شابه ذلك<sup>(١)</sup>. ولم يكتف بذلك، فنادرًا ما يفشل في استدعائي مرتين خلال النهار في الصباح والعصر لمناقشة الأمور الكثيرة التي تحتاج دائماً لعنايته الشخصية، والفترات التي بين ذلك كان يقضيها في التمتع بغفوات نوم قصيرة وفي أداء العبادات الدينية.

إن أمر الصوم العظيم عن طريق الامتناع الجسدي لتطهير الروح حتى تدخل الجنة - كما يرى الوهابيون<sup>(٢)</sup> - فعالٌ تماماً ومقبول، ويجب أن يرافقه فترات طويلة من الصلاة تتخللها أخرى لقراءة القرآن، كما يجب أن يصاحبه أيضاً الابتعاد التام عن أمور الدنيا وجميع أنواع الشرور والآثام. وكلما تكررت قراءة القرآن<sup>(٣)</sup> من أوله لآخره خلال الشهر زادت درجات المرء في الحساب بالآخرة.

وكان الوردون، أمثال عبد الرحمن، الطاعن في السن، يستطيعون إكمال هذه الجهد المهول بما يقرب من ثلاثين مرة في ثلاثين يوماً، ولكن ابن سعود اعترف بأن

(١) هذه كانت طريقة الملك عبدالعزيز في سياسة البلاد أثناء إقامته في الرياض، وللمزيد عن سياسته الداخلية والخارجية في حكم بلاده انظر: محمد رفعت المحامي. أسد الجزيرة قال لي (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ١٧ وما بعدها، أمين الريحاني، ملوك العرب (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م) ح ٢، ص ٤٨٩ وما بعدها، عبدالفتاح حسن أبو عليّة. دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر (الرياض: دار المريخ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ٣٥، ٩١، ١٢٥، ١٤٥. (ابن جريس).

(٢) هذه التعاليم الدينية ليست من صنع الوهابيين، ولكنها تعاليم ريبانية وردت في الكتاب والسنة. (ابن جريس).

(٣) وتعني قراءة "القرآن" أيضاً إكماله أمام شخص يحفظ القرآن ويجوّدّه. (فيلبي).

الاهتمام الضروري بشؤون الدولة والذي يتعذر تفاديه، جعل من المستحيل عليه أن يكمل أكثر من أربع أو خمس مرات من مثل هذه القراءة خلال الشهر.

ومع أول خيط من الفجر الكاذب، الذي يأتي في هذه الفترة بعد نحو سبع ساعات ونصف من الغروب، تُعطى إشارة بقدوم يوم جديد للصوم لسكان العاصمة عن طريق رفع فانوس مقوس كبير على ما يشبه عمود المشنقة (سارية العلم) فوق سقف القصر الملكي متزامناً مع الأذان الأول للصلاة. عند ذلك ينهض السكان كلهم من رقادهم ليستعدوا لليوم، ودون شهية يأكلون ويشربون بعد فترة من الصلاة النافلة، وإلى أن يُعلن الفجر الصادق بالأذان الذي يُرفع من المساجد المختلفة. بعد ذلك تحين الصلاة، والتي بعدها لا يجوز لمس أي طعام أو شراب حتى أذان المغرب<sup>(١)</sup>، وهي فترة تمتد في هذا الوقت لنحو خمس عشرة ساعة ونصف الساعة في أقصى مواسم السنة حراً وجفافاً وغباراً. وفي ظل هذه الظروف كان النوم هو الملاذ الطبيعي للناس الضعاف، ولكن ما كان ابن سعود يسمح به لنفسه. وكان يُقسّم نومه بصورة صارمة إلى ساعة بعد أذان الفجر مباشرة، وساعتين ونصف الساعة قبل منتصف النهار، وساعة قبل صلاة العصر، مع نحو ساعتين أو على أقصى تقدير ثلاث ساعات في الليل، وذلك ليس قادراً كافياً من الراحة الكاملة، ولكنه قد ألزم نفسه طوال حياته كلها على أن يتمتع بنوم قليل مقسماً على فترات قصيرة. وبين الفينة والأخرى كان يعترف أنه لا يشعر بأنه على ما يرام، ولكن من الناحية الفعلية كان يمدح الصوم كعلاج ناجع للأمراض الاعتيادية التي تصيب الجسم البشري.

وكان من عاداته المنتظمة في هذه الأيام أن يذهب قبل المغرب بحوالي ربع ساعة إلى سقف الغرف السكنية الخاصة به في القصر، حيث يلحق به هناك أعضاء مختلفون من العائلة المالكة، وهكذا يجتمعون وينتظرون أول صوت من الأذان ليعلن

(١) هذه طريقة الصوم التي نص عليها القرآن والسنة (ابن جريس).

الغروب، وكل رجل يمسك بتمرّة بين أصبعيه السبابة والإبهام وهو يردد عبارة «أستغفر الله» مرة بعد أخرى طبقاً لما فعله وأمر به النبي عليه الصلاة والسلام. وتوضع التمرات في الفم عند أول كلمات من الآذان<sup>(١)</sup> كإشارة إلى انقضاء الصوم رسمياً، وبعد ذلك تؤخذ رشفة من الماء لإطفاء ظمأ النهار، وهذا يليه ظهور الصواني العظيمة من شرائح البطيخ والتي يتم التهامها التهاماً حسبما تسمح به تلك الشهية المنهكة. وكانت صلاة المغرب هي البند الثاني في البرنامج، يليها مباشرة وجبة العشاء، على الرغم من أن القلة فقط هم الذين يستطيعون أن يقدروها حق قدرها بسبب كمية السوائل الماء والبطيخ التي تم استهلاكها قبل ذلك مباشرة<sup>(٢)</sup>.

بعد ذلك تتفرق الجماعة، ويعود كل رجل إلى خاصة بيته ليستأنف رفقة زوجته وأطفاله التي قطعها الصيام. ويبدو أن الحظر الديني على الجماع الجنسي الحقيقي يفسره الوهابيون على أنه يشمل البعد التام عن مجتمع النساء<sup>(٣)</sup>، إلى أن يعيد آذان العشاء توحيدهم مرة أخرى في مسجد القصر، بينما يجتمع العامة طبعاً في المساجد المختلفة بالمدينة. وصلاة العشاء في رمضان يليها فترة من قراءة القرآن والتي بعدها بفترة قصيرة يقوم خلالها ابن سعود عادة بزيارتي فوق السطح الذي يحمل ساري العلم، والذي كان يُخصص لي للمبيت، ومنه كنت أستطيع أن أشاهد عبادات أو صلوات جموع المصلين في المسجد، وكان يليها سلسلة إضافية من الصلوات تعرف باسم التراويح، وهي صلوات وأدعية مخصصة لإنقاذ وتخليص الروح من الأخطار

(١) يبدو أن الآذان يُرفع مباشرة بعد غروب الشمس في التزام صارم بالعقائد الوهابية. ويبدو أن الشيعة (الذين يُطلق عليهم الرافضة بشكل عام)، ينتظرون حتى ظهور أول نجم، بينما يفسر الوهابيون عبارة غروب الشمس بصورة حرفية تماماً ويعتبرون أن أي تأخير سوف يفسد أو يبطل صوم النهار. (فيلبي). يظهر أن فيلبي يجهل أو يتجاهل بعض تعاليم الدين الواضحة والجلية في القرآن والسنة، وتأخير الإفطار عند المغرب لا يفسد ولا يبطل تأخيره عن وقته (ابن جريس).

(٢) هذه العادات تكاد تكون من تشابهة عند جميع طبقات المجتمع، مع الاختلاف في نوعية الأطعمة والأشربة كل حسب إمكاناته المادية (ابن جريس).

(٣) الوهابيون ضمن مصطلحات فيلبي ليسوا هم الذين يقرون ويشرعون الحظر الديني على الجماع الجنسي خلال النهار من شهر رمضان، وإنما هي نصوص شرعية وردت في الكتاب والسنة حيال هذه الجوانب الفقهية الشرعية. (ابن جريس).

التي تحيط بها. هذه الصلوات تُؤدى كل ليلة خلال الشهر، وتستمر عادة قرابة الساعة، ويتكرر (التسليم) أو السجود مراراً أكثر مما في الصلوات العادية، ويمتد في كل مرة إلى عدة دقائق. وخلال الليالي العشر الأخيرة من الشهر يُضاف بند جديد إلى البرنامج، حيث يلي التراويح فترة قصيرة من صلاة القيام، وهي مرحلة التتويج لشعائر رمضان. تستمر هذه الصلاة طول الليل كله حتى السحور أي الوجبة التي تسبق الفجر التي ذكرناها آنفاً، وتتكون من ركوع وسجود طويلين طولاً شديداً يصل أحياناً إلى حوالي ربع الساعة في كل مرة، ومتعبة بشدة حتى إن الأشخاص الضعفاء يضطرون إلى الاستعانة في الفترات الفاصلة بين كل مجموعة من الركعات بالقهوة والشاي اللذين يدوران حقيقة على المصلين بساحة المسجد<sup>(١)</sup>.

هذا وصفٌ موجزٌ لامتحان رمضان، الذي كان يهيمن تماماً على الساحة خلال الأسبوعين الأولين من إقامتي المؤقتة في الرياض بعد عودتي من الجنوب.

وحيث إن المناسبات الاجتماعية كانت قليلة، فقد مضى الوقت صافياً بدرجة كافية لي فيما يشبه البطالة، وهذا ترك لي كثيراً من الفراغ لأتعامل مع المتأخرات في العمل الرسمي والتي تراكمت خلال مدة غيابي الطويلة، ولكي أقيم كلاً من النتائج التي تحققت في غضون رحلتي الأخيرة وتقدير الموقف السياسي العسكري الناشئ من التطورات الحديثة في اتجاهات مختلفة.

وفي الأسبوع الأول في الحقيقة لم أغانر القصر إلا مرة واحدة، وعلى مضض شديد، لحضور حفل عشاء أقامه إبراهيم الجمعية احتفالاً بسلامة عودة فرقتنا من رحلتها إلى وادي الدواسر<sup>(٢)</sup>.

(١) يظهر في كتابات فيلبي الدقة في وصفه صلاة التراويح، وشدة ملاحظاته ودقته في تدوين المعلومات من الصفات الجيدة التي يتصف بها في أغلب كتبه ودراساته. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن وادي الدواسر، انظر: (عبدالرحمن صادق الشريف. جغرافية المملكة العربية السعودية (الرياض: دار المريخ، ١٤١٧هـ/١٩٨٧م) ج١، ص ٨٩ وما بعدها. (ابن جريس).

إن ذكرى بعض الحوادث في تلك الرحلة كانت على كل حال حية بقوة في عقول معظمنا؛ لتمنح هذه المناسبة نجاحاً غير محدود. وكان توزيع الهبات سيأتي بعدها، وكان بعض رفاقي يدركون حقيقة أنهم قد نالوا بالكاد نصيبهم الذي كانوا يتوقعونه بناءً على المبدأ العربي العام الذي يقول بأن الماضي لا يستحق القلق عليه<sup>(١)</sup>. وبصورة عامة كان الأمر بمثابة عذر واضح للهرب من العيد، ولكي نسير قدماً - كما فعل بعضنا - إلى بيت العبد عبد الرزاق، حيث سررت بالتعرف على أحد زملائه من العبيد يُدعى مخيِّت بالاسم، والذي كان قد أصيب بجرح شديد في معركة جراب الشهيرة<sup>(٢)</sup>، وهو لا يزال، وربما سوف يستمر طوال حياته، معطوباً بدرجة ميؤوس منها، غير قادر على الحركة بسبب عرج رجله اليمنى الدائم. بدا أن طلعتة البهية تعوض عن بليته المؤسفة، وكان مفرحاً أن نلاحظ الصداقة المخلصة والإعجاب الذي يبديه ويثته في زائريه.

في وقت لاحق من هذا الأسبوع نفسه جاء وقت الاختبار القاسي بتوزيع الهبات على رفاقي الجدد. وكان طامي الذي أُمر فجأة بالسير إلى معسكر تركي الصغير على حدود بلاد شمر، هو أول من تلقى نصيبه وراح راضياً. وابن جلهم الذي جاءت دعوته لتناول العشاء معي في الليلة التي سبقت رحيله إلى الأفلاج والسليل مع جماعة من خمسة وعشرين رجلاً بقيادة عبد الرحمن بن ثيان لجمع الزكاة على

(١) الماضي لا يستحق القلق عليه: هذا مثل شعبي أو حكمة تعرف عند سكان الجزيرة العربية وغيرهم من شعوب العرب، ويقال بعبارات مختلفة مثل: (الذي فات مات) أو (طرد في الفأث نقص في العمر)، إلى غير ذلك من الألفاظ المتنوعة حول إيراد هذا المثل. (ابن جريس).

(٢) معركة جراب: وقعت بين الملك عبدالعزيز الفيصل وابن رشيد عام (١٣٣٣هـ/١٩١٥م) وانتصر الملك عبدالعزيز على خصمه، مع أنه قتل من رجال الملك عبدالعزيز محمد بن جلوي، ومحمد بن شريده، وصالح الزامل أمير غزو أهل عنيزة، وكذلك الضابط البريطاني شكسبير الذي كان قد أتى إلى نجد للتفاوض مع الملك عبدالعزيز، وأصرَّ على حضور المعركة، للمزيد انظر: سعود بن هذلول. تاريخ ملوك آل سعود (الرياض: د.ت، ١٣٨٠م) ص ١٠٥، أمين الريحاني. تاريخ نجد وملحقاتها (الرياض: د.ت، ١٩٨١م) ٢٢٠ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ١٤٦ - ١٤٧. (ابن جريس).

قطعان ومواشي وادي الدواسر، قد استلم نصيبه وكان هو المبلغ نفسه. ولقد قبله شاكراً، وقال إن عباءة (aba) ستكون إضافة مرغوبة إلى العطية، لكنني رددت عليه بقولي: إنه لم يكن ليضطر إلى طلبها إذا كان أكثر نشاطاً وتعاوناً معي فيما يتعلق بأحداث معينة خلال تلك الرحلة. وعلى الرغم من ذلك، أردفت قائلاً: حيث إنني لا أكن له ضغينة في هذا الخصوص، فإني سوف أعطيه عباءة عندما يعود من الجنوب. ومضى لحاله وهو يدرك أنه لن يراني بعد الآن.

وفي اليوم التالي استدعيت رشيد ليعاونني في إعداد قائمة بمكافآت باقي الجماعة. ذاعت تلك الأخبار وانتشرت، وجاء الجماعة كلهم إلى غرفتي لتوفر عليه العناء. وعلى الرغم من ذلك، وفي تلك اللحظة كنت قد استدعيت إلى مقابلة ابن سعود، وهكذا تأخر التوزيع الفعلي للهدايا إلى صباح اليوم التالي<sup>(١)</sup>.

وكان مترك الذي حاول أن يخدمني في مسألة الطريق البديل للعودة من الحائر وعبيد الذي تركني في الوادي دون إذن مني، قد حذرتهما من أنهما لن ينالا شيئاً؛ ولذلك كانا حكيمين وبقيا بعيداً حتى يتفاديا الشعور بالخزي من رؤية الباقيين وهم ينالون مكافآتهم. بيد أن إبراهيم الذي لم تثبط همته أبداً مع علمه أنه كان في حكمهما نفسه، قد دخل عليّ عندما كنت أضع للبقية وجلس مستنداً للحائط إلى أن تم الانتهاء من دفع آخر مبلغ واختفى مستلمو المكافآت. وسألني عند ذلك قائلاً: «ما إلي شيء؟». وفي ردي عليه وبخته بعنف وقسوة، وهو الذي كان قائداً للجماعة، على جهوده المستمرة لإفساد متعتي بالرحلة. وقلت له: إن ما فات قد فات<sup>(٢)</sup>، ولكنني لو كافأت على الخدمة الطيبة والسيئة على السواء فلن أنال شيئاً في المستقبل إلا

(١) كان فيليبي مدعوماً سياسياً وإدارياً ومادياً من الملك عبدالعزيز، بل كان بحوزته أيضاً بعض الأموال من قبل الحكومة البريطانية كي يستعين بها على إنجاز مهماته ورحلاته السياسية والعلمية. وتلك العطايا والهبات التي كان يوزعها على رفاقه تعتبر مقابل خدماتهم التي يقدمونها له أثناء رحلاته. (ابن جريس).

(٢) ما فات قد فات: مثل شعبي يقال في جزيرة العرب، وقد تُغير بعض كلمات هذا المثل، فيقال: (ما فات مات). (ابن جريس).

الخدمة السيئة. والمستقبل هو ما أهتم به الآن؛ ولذلك سوف لن يكون له شيء. ولقد أصابته الدهشة بصدقٍ على الأرجح، وقام من مجلسه وهو يطلق سلسلة واضحة من أصوات التذمر والأنين، واندفع خارجاً من الغرفة مصحوباً بخيبة الأمل وبلا تعزية أو ترضية. وقد بذل رشيد سابقاً جهداً جباراً لكي يصدني عما نويت عليه خشية أن يشتكي إبراهيم لابن سعود، ولكنني كنت مستعداً لخوض هذه المجازفة، على الرغم من أنها ليست مجازفة أكثر من أن يرهقني مرة أخرى في رحلتي القادمة. وكما أثبتت الحوادث، فقد أغلقت هذه الحادثة نهائياً جميع الحسابات بيني وبين إبراهيم. وخلال السنوات التي تلت ذلك، قُدر لي أن أراه بين الفينة والأخرى وأن أمدح ما يستحقه من احترام من على بُعد أكثر مما كان ممكناً خلال رحلتين سابقتين قمت بهما كان دليلاً خلالهما. بل إننا بمرور الزمن أصبحنا قادرين على مناقشة الأحداث الصغيرة المضحكة التي تقع أثناء الرحلات وكنا نختلف عليها قديماً، وإنه لمن الرضا الحقيقي، بعد أن أصبحنا بعيدين تماماً عن كل مخاطرة من الترحال في الصحراء مرة أخرى تحت قيادته، أن أصرح علانية أننا الآن مثل «صديقين فور افتراقهما صارا مخلصين». ومنذ تلك الأيام ترقى إلى وظيفة عالية في خدمة سيده، وهو اليوم رئيس الديوان الملكي في بلاط الملك.

وجاء رشيد أخو حسنة ليحل عملياً محل إبراهيم من هذه اللحظة فصاعداً، وفي زيارة لشرب القهوة في منزله قد نلت من القصر فرصة الذهاب في رحلة أخرى خلال تلك الفترة.

وقد قابلته وحيداً مع شقيق زوجته، محيميد، في قاعته الصغيرة، المزدهمة بالأواني، حيث، كما اعترف لي بلا خجل أنه كان يقضي كل وقته، باستثناء فترات قصيرة يخدم فيها ضيوف ابن سعود، يداعب زوجته<sup>(١)</sup>. وقال لي صراحة: إنه قنوع

(١) الأوربيون لا يتخرجون الخوض في مثل هذه المواضيع الأخلاقية الاجتماعية وهي شبه عادية عندهم. (ابن جريس).

تماماً بحظه ونصيبه الحالي، وأردف أنه رفض مؤخراً دعوة شخصية من ابن رشيد ليعود إلى حائل، موطنه الأصلي. وتتكون أسرته من أم زوجته وأختين بالإضافة إلى محييميد وشخصه.

لقد حدث شيء رائع بصورة استثنائية نوعاً ما قبل عودتنا إلى الرياض بفترة قصيرة؛ فقد تعرضت زوجته فجأة لنوبة صرع استمرت خمسة أيام، وظلت خلالها غير قادرة على الكلام وشبه ميته. وكانت هناك شائعات أيضاً عن أنها تقدمت إلى ابن سعود تطلب طلاقها من زوجها بحجة عدم قدرته على الإنجاب منها. وفي هذه الحالة قد تكون تلك الشائعات خبيثة، وتستفيد من عدم إنجابه أطفالاً لكي تتهمه بالعجز الجنسي. بيد أن الزمن يأخذ تأره بنفسه، فعندما قابلت رشيد بعد سبعة أو ثمانية أعوام في الحجاز، سمعت أنه والدٌ فخور بولده، الذي يبلغ فعلاً ثلاثة أو أربعة أعوام من العمر، من امرأة أرمنية أوقعها قدرها في جزيرة العرب وفي حظيرة الإسلام، وأن هذا الولد<sup>(١)</sup>، حسبما احتفظ به من ذكرى تلك الأيام التي أكتب عنها كان قد سُمي باسمي<sup>(٢)</sup>. أما رشيد، بكل ما فيه من تفاهة حقيقية ومادية فظيعة، إلا أنه له جانبٌ حساسٌ في شخصيته، بل كان شيئاً ما قريباً من شاعر بالمعايير العربية الحديثة. وتكمن جدارته الرئيسية في ذاكرته القوية؛ إذ هي معين لا ينضب من القصائد المعاصرة. ولقد استطعت أن أحصل منه خطياً على قصيدة للشاعر المشهور حمود بن عبيد من حائل وقصيدة أخرى من "عبد" يدعى مفضي، بيد أن كتابته البدائية للكلمات قد استعصت على الخبراء في كيمبردج، وكنت دائم الندم على عدم مواصليتي لدراسة هذا الأدب فوراً على الطبيعة باهتمام أكبر، ولكنني لم

(١) توفي ذلك الولد في عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) (فيلبي + ابن جريس).

(٢) قول فيلبي (قد سُمي باسمي)، أي أن هذا الولد الذي يتحدث عنه سُمي عبدالله، وهو أيضاً الاسم الذي تُسمى به فيلبي بعد دخوله الاسلام، وغالباً ما يعرف عند سكان الجزيرة باسم (عبدالله فيلبي) وأحياناً يقال له (الحاج عبدالله). (ابن جريس).

أندم على شيء مثل ندمي على تقصيري في تقديم مجموعة تمثل الأعمال الشعرية لطامي الذي لم يعد شاعراً الآن.

كانت نزهتي التالية إلى بيت محمد بن شلهوب أمين خزينة ابن سعود والمحاسب العام، وسواء كان ذلك بترتيب من ابن سعود أم لا<sup>(١)</sup>، فقد جاء عن عمد ليأخذني لتناول القهوة. وقضيت ساعة سعيدة في مجلسه مع نحو ستة من الضيوف الآخرين والذين يبدو أنهم كانوا قانعين بجلوسهم في صمتٍ بليد لتركوا شأن الحديث لي ولمضيفي<sup>(٢)</sup>، بينما كانت تدور علينا أقداح الشاي ثم القهوة التي تلتها صوان كبيرة من شرائح البطيخ والعنب اللذيذ. وانتهت الجلسة بدورة البخور<sup>(٣)</sup>، وبعدها عدت أنا وشلهوب إلى القصر معاً؛ لأنه كان مضطراً إلى أن ينضم إلى ابن سعود في صلاة العشاء؛ ولأنه من مواطني الرياض الأصليين بالميلاد، ووهابي المذهب بالدين<sup>(٤)</sup>، فقد كان رجلاً ذا أخلاق وعلى قدرٍ عظيم من الروعة، وهو دائماً شديد الود والصراحة معي. وفيما يبدو حقاً فإنه خالٍ تماماً من النفاق والتعصب الأعمى اللذين يكثران بشدة في المواطن العادي بالرياض. ويظهر ذوقه الرفيع واضحاً أو ذوق زوجته - وأظنه كان يملك بيتين منفصلين في هذا الوقت في نوعية الأثاث شبه الفاخر مثل السجاد والفرش والوسائد التي تجعل المجلس مريحاً حقاً.

وهكذا مضى شهر رمضان بطيئاً وثيداً ولكنه بالتأكيد كان يمضي إلى نهايته المرهقة. وفي اليوم السابع من يوليو، الموافق (٢٨) رمضان، كان ابن سعود يتحدث بشكل عام عن قسوة الصيام، ويتساءل ما إذا كان القمر سوف يظهر في الليلة

(١) كنت قد اشتكيت من عدم وجود مناسبات اجتماعية مسلية. (فيلبي).

(٢) هذه من العادات التي تعارف عليها سكان الجزيرة العربية، فالضيف عندهم ينال قدراً من الاحترام، فيعطى الفرصة دون غيره في الحديث، ويكون أول من يقوم من الحاضرين لتناول وجبات الطعام، إلى غير ذلك من الأعراف الاجتماعية المختلفة. (ابن جريس).

(٣) عادة تقديم البخور إلى الضيف من العادات الحسنة القديمة عند سكان الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٤) كما ذكرنا سابقاً، الوهابي أو الوهابية ليست مذهباً أو معتقداً خاصاً كما يسميها فيلبي وغيره ممن هم على شاكلته. (ابن جريس).

القادمة أم لا . وحيث إنني كنت فعلاً قد درست التقويم الهجري بدقة وتأكدت أن القمر سيكون كبيراً بدرجة كافية للظهور في الظروف المواتية، فقد تجرأت على التنبؤ بأن الليلة القادمة ستكون بُشرى العيد، على الرغم من توقع (الرجال الحكماء) المحليين بأنها ستكون اليوم الثلاثين من رمضان. وقبل الغروب بقليل في الليلة التالية كان هناك حشدٌ عظيمٌ من الناس المجتمعين على أسطح البيوت تشرَّبُ أعناقهم باتجاه الحافة المسننة لجبل طويق التي تظهر للعيان في غروب الشمس في روعة نادرة. وقد كان معظم الحشدُ من النساء، اللاتي يقال إن بصرهن أشد حدة وقوة من الرجال. وخامرني شعور خفي بأن تبيء باحتمال ظهور القمر كان معروفاً لدى كثير من الراصدين الذين، على الرغم من أن عدم ظهوره يعني لهم صوم يوم إضافي، سيكونون سعداء تقريباً بدحض وقاحة الكافر<sup>(١)</sup> عندما يظهر الحكم الإلهي.

وكما قد يفعلها الحظ، فقد امتدت حزمة من السحب الرقيقة فوق موقع القمر طوال تلك اللحظات الحرجة. وغربت الشمس في وهجٍ من اللهب الأصفر مخترقة هذه السحب الهشة وحوّلتها ببطء إلى مسحة رائعة من اللون الوردي، تمتد في أحزمة رفيعة عبر السماء التي كان يبدو بين ثناياها أشعة براقية من أشد الأضواء الزرقاء وضوحاً. بيد أنه عندما أرخى الليل سدوله علينا كان من الواضح أن القمر لن يُرى في تلك الليلة، وزحفت الجموع التي خاب رجاؤها نازلة من الأسطح لكي تكسر صيامها الذي كان عليهم أن يتحملوه ليوم آخر. وعلى الرغم من ذلك لم تكن خيبة رجائهم شيئاً يقارن بخيبة رجائي، لأن (كتبي) قد خذلتني في اختبار قاس، ويشعور من الإرهاق الذهني وليس البدني تمددت لأنام تلك الليلة على سطح القصر، ولقد جفلت فجأة من نومي الخفيف بسبب انطلاق طلقة مدفع، تلتها ثانية

(١) كلمة (الكافر) تطلق على من يكفر بدين الله. وهذا المصطلح كان وما زال يستخدم على الأجنبي الذي لا يدين بالديانة الإسلامية. (ابن جريس).

وثالثة، حوالي ست أو سبع طلقات في مجموعها على فترات زمنية متقطعة. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وتحتي في المسجد كنت أستطيع أن أسمع التراتيل الرتبية في صلوات القيام<sup>(١)</sup>. كان من الواضح أن شيئاً خارجياً ما قد حدث فجأة، وإذا كنت قد واجهت صعوبة في تخمين طبيعة ما حدث، فإن (صالح)، الذي يضيء المصابيح، عندما صعد للسطح ليغيّر اللمبة المقوسة، التي كانت تترك مضاءة طول الليل في تلك العشر الأواخر، لم يضيّع وقتاً في إخباري بالبشرى السعيدة. فقد جاء بعض البدو من دكينة على جناح السرعة ليشهدوا أنهم قد رأوا هلال القمر الجديد، وأنهم قد أرسلوا إلى رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب الذي استدعى على الفور محكمة شرعية مكونة منه اثنين من القضاة ليأخذوا شهادة هؤلاء القادمين الجدد. وقد أعلن القضاة عن اقتناعهم ورضاهم التام، وكانت طلبة المدفع، التي أقضت مضجعي، أول إعلان لسكان الرياض بأن غداً سيكون الاحتفال بالعيد. واستمرت صلاة القيام حتى الانتهاء من (التسليم) الذي كانت جموع المصلين منهمكة فيه تلك اللحظة. ومن المستحيل أن تتصور البهجة الباطنة للناس كلهم عندما نهضوا واقفين على أقدامهم من آخر مقطع من آخر كلمة من آخر آية من آخر تسليم، فقد انقضى الصوم العظيم وانتهى لعام آخر، عامٌ من الاستمتاع غير المقيد بمباهج الحياة أمامهم. الله أكبر !! قد يكون من الصعب تصور عَرْضٍ للعبادة والشعائر الدينية أشدّ عجباً من المحافظة على الصوم العظيم لرمضان من قبل سكان الرياض.

وأشرقت شمس الغد على السكان وهم يرفلون في أفضل حللهم وملابسهم أملاً في بدء يوم العيد بصلاة العيد المعتادة. وفي ساعة مبكرة جداً، نحو الخامسة صباحاً،

(١) القرآن الكريم ليس تراتيل رتبية كما يدعي فيلبي. ومثل هذا القول يصدر ممن لم يدخل القرآن والإيمان قلبه، أو كان على ملة مخالفة للإسلام. (ابن جريس).

جاء من يوقظني من سباتي وينبهني للنزول إلى مكان سكني قبل أن تعود الجموع من صلاتها إلى القصر. وللحظات تباطأت على السطح وأنا أرمق المدينة بنظراتي من بين فتحات الجدار الساتر فوق القصر. وامتدت سحابة رقيقة من الغبار مثل حجاب قاتم يبعث في النفس الحزن والكآبة على الأفق والشمس الواهنة تكافح جاهدة لاختراقها. وقد بدت المدينة مهجورة ومقفرة تماماً، ولم يقطع عزلتها إلا ثغاء الأعداد الهائلة من الماعز، التي كان انطلاقها إلى المراعي ينتظر عودة الرعاة من صلاة العيد والوليمة التي سوف تقدم لهم بعد ذلك فوراً في القصر. وقد توجه الرجال كلهم في المدينة إلى ذلك الفضاء المسور المخصص لصلاة العيد خارج البوابة الشمالية الشرقية. والصلاة نفسها قد بدأت بعد شروق الشمس واشتملت على خطبة لابن سعود، واستمرت حوالي نصف ساعة. ثم تدفقت الجموع عائدة إلى القصر، حيث كانت أعداداً لا حصر لها من الصواني العامرة بالأرز ولحم الضأن تنتظر الضيوف في الفناء العظيم من قسم القصر الذي يوجد به جناحي. وكان كل رجل عندما ينتهي من طعامه ينهض من مكانه، وهو يلحق أصابعه التي كان - عندما يمر من خلال الفناء الصغير أمام نافذتي - يغمسها في مرجل للماء موضوع هناك لهذا الغرض. وهكذا، واحدٌ تلو الآخر في سبيل لا ينتهي أبداً، كانوا يمرون أمامي، وهم يجففون أيديهم في ملابسهم الخاصة بالعيد أو على جدران الفناء الطينية، متجهين نحو صالة الاستقبال الكبرى، حيث كان ابن سعود يجلس في مجلسه ليتلقى ولاءهم وطاعتهم له.

وقد احتفل إبراهيم الجنيبي بهذه المناسبة بتناوله الإفطار معي للمساعدة في إعداد قائمة بالهدايا، التي جرت العادة أن أقوم بتوزيعها على خدم القصر. وباقي اليوم، بخلاف مقابلة قصيرة جداً مع ابن سعود في فترة ما بعد الظهر، قضيته خالياً مع نفسي، راضياً تمام الرضى عن الفراغ الإجباري لمدة أسبوعين مما مكنتني من استئناف عملي، ولكن، على الرغم من ذلك كنت أمل أن الحياة ستكون أكثر تنوعاً ومرتعة مما كانت عليه في ظل الصيام.

وبالإضافة إلى الزيارات القليلة التي قمت بها، فقد قسمت وقتي أقساماً متساوية تقريباً بين غرفتي والسطح الذي توجد عليه (سارية العلم)، الذي كنت أصعد إليه بصورة منتظمة مع كتبي، وأدوات الكتابة فور أن تميل الشمس نحو الغروب بدرجة كافية لتوفر لي ظل الجدار الساتر حول السطح، والذي منه كنت أنزل بالقدر نفسه من الانتظام كل صباح عندما كان الجدار الساتر نفسه لا يكفي لتظليلي من الشمس الطالعة. وخلال النهار كان هناك طبقٌ دائمٌ من البطيخ الرائع والعنب ذي الجودة المعقولة متاح دوماً لراحتي وإنعاشي. وكانت وجبات طعامي تأتي طبعاً بصورة منتظمة من مطبخ القصر على الرغم من ظروف الصيام. وفي الحقيقة كان من النادر أن يبقى المطبخ أقل نشاطاً مما هو عليه في الأيام العادية؛ لأنه كان هناك غرباء دائماً داخل أبوابه والذين يُباح لهم الفطر أثناء رمضان. وكان البطيخ الرائع من المناطق القريبة طبق الطعام الدائم خلال هذا الفصل، لاسيما في أثناء الأمسيات، وحيث إنه قد قيل: إن كل واحدة من هذا البطيخ تكلف ما يصل إلى روبية واحدة، فإن نفقات القصر على هذا البند وحده لا بد أن تكون باهظة<sup>(١)</sup>. وفي إحدى الأمسيات، على سبيل المثال، وعندما كنت أمر في طريقي إلى السطح، لاحظت مجموعة من نحو عشرين عبداً مجتمعين حول صينية عظيمة من شرائح البطيخ وهم يأكلون بنهم واستمتاع شديد، وحيثما مضى المرء في الأمسيات كان هناك الطبق نفسه لتوزيعه بعد الشاي والقهوة الاعتياديين. وبطيخ الرياض، أو بالأحرى بطيخ المصنعة ومنفوحة<sup>(٢)</sup> مشهور في الجزيرة العربية بحجمه الكبير وطعمه اللذيذ.

(١) نشاهد دقة ملاحظات فيلبي عندما يذكر أسماء بعض الأطعمة التي شاهدها في قصر الملك، بالإضافة إلى أسعار بعضها. (ابن جريس).

(٢) منفوحة والمصنعة من أحياء مدينة الرياض، وللمزيد عن الرياض وضواحيها، تاريخاً وحضارة، انظر: فهد عبدالعزيز الكليب، الرياض (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب) ١٣/١٩٩٣م، ص ١٢ وما بعدها، وليام فيسي، الرياض المدينة القديمة. ترجمة عبدالعزيز الهلالي (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٢٨ وما بعدها، حمد الجاسر. مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ (الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ) ص ٢٢ وما بعدها) خالد حمد السليمان. معجم مدينة الرياض (الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

وكانت مظاهر الاحتفال بالعيد في هذه المرة قد كدرتها - لسوء الحظ على الرغم من أن ذلك لم يحدث إلا بعد المناسبة - حادثة مشؤومة وغير عادية. فطبقاً للمعتقدات الوهابية يجوز أن يتواصل صوم رمضان العظيم الإلزامي - بعد انقضاء يوم العيد الذي لا يجوز صيامه بصوم ثانوياً واختيارياً تماماً لمدة ستة أيام من اليوم الثاني حتى السابع من شوال<sup>(١)</sup>. ويقال: إن هؤلاء الذين يملكون القوة أو القدرة على تحمل هذه الكفارة<sup>(٢)</sup> الإضافية من المؤكد عملياً دخولهم الجنة في الوقت المناسب. والإخوان الذين لا يتركون أي شيء للصدقة كانوا قد بدؤوا بالفعل في هذه الفترة الثانية للصيام عندما أحدث أحد كبار الشيوخ في الرياض وهو ابن نمر تحديداً - وكان شيخاً وواعظاً لابن سعود في أسفاره وترحاله - شيئاً ما من الرعب أو الذعر في صفوفهم عن طريق توبيخهم على صومهم يوماً كان في الحقيقة هو يوم العيد. وكان حنقه قد ثار بسبب إهمال رئيس القضاة في استدعائه لحضور المحكمة التي انعقدت لتسجيل شهادة بدو دكينه (Dakina) الذين سبق ذكرهم. وقد اختار هذه الطريقة للانتقام والثأر لنفسه وذلك بإلصاق تهمة مزدوجة للإخوان الأبرياء الذين - إن كان هو محقاً - لم يخطئوا فقط بصومهم يوم العيد بل إنهم قد ارتكبوا أيضاً خطيئة لا تغتفر باحتفالهم بالعيد في آخر يوم من رمضان. وكان هذا الاتهام خطيراً بدرجة لا يمكن التغاضي عنها أو السكوت عليها. وتقدم الإخوان المذعورون إلى ابن سعود نفسه طالبين حلاً لهذا المأزق العظيم والذي تصرف في هذه المسألة بصورة متميزة، فقد أرسل إلى ابن نمر ليشرح تصرفه هذا، وجاء وهو غير نادم، بل كان توجهه وقحاً ومتحدياً. ووجد نفسه دون لغط كثير داخل السجن، حيث كان،

(١) لقد أخطأ فيلبي بوصف صيام ستة شوال بأنها «حادثة مشؤومة وغير عادية» وإنما هي سنة وردت عن الرسول ﷺ ومن صامها فله أجر عظيم. ووصف فيلبي هذه المناسبة بهذا الوصف يدل على جهله بأمور الدين الإسلامي، ثم أنه مازال أيضاً على ملة الكفر. (ابن جريس).

(٢) صيام ستة أيام من شوال ليست كفارة كما ذكر فيلبي، وإنما هي تطوع وسنة عرفت عن الرسول ﷺ. (ابن جريس).

بالصدفة، الضابط التركي، قدسي أفندي، الذي أُلقي القبض عليه وهو في طريقه من اليمن إلى سوريا عبر الصحراء في أبريل الماضي. ولا يزال ينفطر قلبه كمدماً بوضوح في حبسه الإنفرادي. وكانت ساعات قليلةً من هذه التجربة نفسها كافية لإقناع ابن نمر بخطأ طريقته، ولكن صرخاته التي يُرثى لها طلباً للرحمة والعتو لم تجد طريقها إلى قلب ابن سعود. وقد أفرج عنه بعد ذلك بأيام قلائل وخرج رجلاً أشد حزناً وأكثر حكمة، وكان مثاله هذا تحذيراً (للعلماء) الجزيرة العربية بأن خلق الفرع في عقول عامة الناس لن يكون سلاحاً مشروعاً في الخلافات الناشئة عن مجاهداتهم المستمرة لاحتلال مكان الصدارة<sup>(١)</sup>.

## ٢- نُذُرٌ وَتَحْرِكَات

علاوة على المتاعب البدنية التي جلبها الصيام، فقد كانت هذه الأيام من رمضان أيام قلق في العاصمة الوهابية، وكان هناك سحابة ومع أنها غامضة لكنها تتذر بشؤم، يخلق فوق الحاكم ورجاله. والصوم، مع أنه ليس مرغوباً بدرجة كافية في الوعي الإدراكي لكنه قد وفر مهلة للملك من المتابعة النشطة لمغامرة ما<sup>(٢)</sup>، محفوفة بالخطر والاضطراب، كما هي ملزمة بسبب وعده، وترفضها الظروف التي وجد فيها نفسه. وبكل القوة والتجرد من الانفعالات التي أخضع بها نفسه، لقسوة التوبة المطلوبة منه فقد كان يعتصره الألم الذهني الذي لم يستطع أن يخفيه في لحظات الإرهاق البدني الشديد، وهو الآن عند مفترق طرق، وعلى الرغم من أنه قد

(١) كان الملك عبدالعزيز حكيماً في تعاملاته مع العلماء، وعليه القدم، لكن إذا خرج أحد عن المؤلف فإنه يُروع ويعاقب حتى يعود إلى رشده. للمزيد عن صفات الملك عبدالعزيز، انظر: إبراهيم عبده. إنسان الجزيرة: عرض جديد لسيرة الملك عبدالعزيز آل سعود (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٩٥ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) لا ندري ما المقصود عند فيليبي بأن الصوم كان غير مرغوب بدرجة كافية عند الملك عبدالعزيز ورجاله. واستخدام مثل هذا المصطلح يعتبر أسلوباً غير صحيح في فهم الصوم، وما يجده المسلم فيه من روحانيات كبيرة مع ما يقابله من عناء الجوع والعطش. (ابن جريس).

أعلن الطريقة التي ينوي أن يتبعها إلا أنه يستطيع دائماً أن يتراجع عنها قبل أن يبدأ فيها فعلاً. ولكنه بمجرد أن يبدأ لا يستطيع التراجع. وفي الوقت نفسه كان يركز انتباهه على الصوم ورفض أن يناقش خططه المستقبلية. وهكذا يفعل طائر النعام، ملك الصحراء المجنح، الذي يُقال إنه يدفن رأسه في الرمل الودود عند وجود خطر ما، ولأنه يعي قوته وسرعته فإنه يسعى إلى تقادي رؤية عدوه له حتى يضطر إلى مواجهة لحظة الاختيار بين الكر أو الفر<sup>(١)</sup>. لقد كان ابن سعود حقاً يقف عند نقطة تحول في حياته العملية؛ فالطريق المستقيم يؤدي إلى حائل، حيث لا يزال العدو التقليدي لأسرته حاكماً دون مواجهة من أحد، بمؤازرة قوية من الأتراك<sup>(٢)</sup>. ومن المحتمل أن يؤدي القضاء على ابن رشيد إلى تحطيم ميزان القوى إلى الأبد، إذ إن موقف الدولة الوهابية غير موثد أو مستقر تماماً في وسط الجزيرة العربية. وعلى هذا الطريق كان ابن سعود يتوقع درجةً ما من المساندة المادية من الحكومة البريطانية التي، على الرغم من أنها تنفر من حيث المبدأ من أي اختلال في ميزان القوى القائم في الصحراء، لكنها كانت تبحث عن بعض الوسائل لتحويل انتباه الوهابيين عن شكواهم ضد الشريف حسين بالحجاز وآخرين الذين تصادف أن يكونوا حلفاءنا<sup>(٣)</sup>. وأي نجاح كبير ضد ابن رشيد سوف يميل بصورة عامة إلى إضعاف الموقف التركي في الجزيرة العربية وعلى طول خط سكك حديد الحجاز<sup>(٤)</sup>.

(١) هذه العبارات التي استخدمها فيليب عن الملك عبدالعزيز تدل على حنكته في اختيار الوقت المناسب لمواجهة أعدائه. ويعتبر شهر رمضان من الأوقات التي يتفرغ فيها الإنسان لعبادة وترك ما سواها حسب الاستطاعة. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن ابن رشيد في حائل، انظر: فهد العريفي. حائل (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٧٢ - ٩٢، عبدالله الشهيل. فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة (١٣٢٣ - ١٣٥١هـ/١٩٣٢م) ص ٣١، ٦١، ١٥٢ - ١٥٥. (ابن جريس).

(٣) يقصد فيليب بكلمة (حلفاءنا) أي الحكومة البريطانية التي ينتمي إليها. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من الإيضاح عن أوضاع الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، انظر: لوريمر، ص ٥٠١ - ٥٢٣، أبو عليّة، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ص ١٠٩ - ١٢٤، ٢٢٩ - ٢٦٠، غيثان بن علي بن جريس. صفحات من تاريخ عسير (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ص ١ + ٢، ص ٩١ - ١٢٠، ٢٢٥ - ٢٧٤. (ابن جريس).

وهكذا وبسبب الظروف كان المسرح مهيباً لابن سعود، ولكن حقيقة تتضافر هذه الظروف لتحتة على اتخاذ طريق معين، تجعله مرتاباً وقلقاً.

والعدو التقليدي لم يكن هو العدو الحقيقي، وفي أي حال يمكن التعامل معه غداً إن لم يكن اليوم بالطريقة العربية المعتادة. والخطر الحقيقي يكمن في بيض الأفاعي الذي تحتضنه الحكومة البريطانية بصدورها. إنها قد تفعل ذلك وتفلت بنفسها من العواقب، ولكن أصدقاءها سوف يعانون<sup>(١)</sup>.

وكان ابن سعود يشعر أن خصماً في الصحراء لا يمثل إلا تهديداً قليلاً بالمقارنة مع الخصوم على سواحل البحر العظيم، الأمنين إلى الأبد باعتمادهم على الحماية البريطانية، وهذه المناسبة ليست ملائمة لأكتب فيها عن الطريقة التي تعامل بها مع هؤلاء الخصوم في الوقت المناسب، ولو كان عميلاً حراً لكان قد فضل توجيه مسيرته ضد حدود الحجاز أو ضد الكويت، ولو نفذ هذه النزوة لكان من غير المحتمل أن يصبح على الإطلاق أكثر من حاكم لجزيرة العرب الوهابية. وقد وجه القدر خطواته نحو الطريق المستقيم، وعلى الرغم من أن تحركه في البداية كان بطيئاً ووثيداً إلا أنه بالتأكيد قد شرع من تلك اللحظة في حياة عملية مليئة بالفتوحات وباحتمالات لا نهائية لا يجروء على تخيلها في ذلك الوقت إلا أشجع الرجال<sup>(٢)</sup>.

(١) وهذا بالفعل ما حدث، فلقد انقلب السحر على الساحر وتغيرت بريطانيا على أصدقائها، فزرعت لهم الخراب والدمار المتنوع في بلادهم، وما زالت أجزاء عديدة من العالم العربي تعاني من تلك السياسة التي رسمتها الحكومة البريطانية، وأعظم تلك المشكلات توطين دولة إسرائيل في فلسطين (ابن جريس).

(٢) هذا الإقدام والشجاعة من الملك عبدالعزيز في مواجهة أعدائه آنذاك، وهم كثير، هي من الأسباب الرئيسية في نجاحه حتى جمع شمل القبائل والبطون في معظم الجزيرة العربية، حيث أصبحت تدين بدين الإسلام تحت مظلة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، بعد أن كانت تسودها شريعة الغاب من الفوضى والتناحر والصراعات الدامية. للمزيد من الاطلاع، انظر: آر. إي. تشيزمان. في شبه الجزيرة العربية المجهولة. ترجمة عبدالله المطوع، ومحمد الفريح (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٨٣ وما بعدها، أبو علي، دراسات في تاريخ الجزيرة، ص ٩ - ٢١، حافظ وهبة. جزيرة العرب في القرن العشرين (القاهرة: د. ن، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) (ط٢)، ص ٢١٥ وما بعدها، هاري سانت جون فيلبي. العربية السعودية: من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء. ترجمة عاطف فالح يوسف (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، ص ٤١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

وفي هذه الأثناء كان هناك الكثير مما يجب التخطيط له ومناقشته فيما يتصل بالحملة العسكرية القادمة، والتي افتتحت بشكل ما وبصورة تجريبية قبل بداية رمضان عندما ركب تركي، الشاب الوريث للعرش الوهابي<sup>(١)</sup>، متقدماً مع جماعة مقدر من الإخوان ليغير على حدود شمر. في ذلك الوقت، عاد سعود بن رشيد إلى عاصمته، بعد أن أثارته بلا شك الشائعات عن نوايا ابن سعود وسروره بوجود عذرٍ معقول للفرار من مركز قيادة حلفائه الأتراك في مدائن صالح، حيث كان من الواضح أن موقفه كضيف مبدل صار مصدر ضيق وضجر أكثر مما يبدو. وكان عميله السري، رشيد بن ليلى، قد وصل في الوقت نفسه إلى دمشق قادماً من إسطنبول ومعه شحنة مرغوبة من المدفعية والذخيرة، وقد كان على وشك الرحيل بها للانضمام إلى سيده. والقلق العام في شمر يتضح من الشائعات الدائمة أن ابن رشيد على وشك أن يتقدم للسلطات البريطانية في بغداد بمقترحات للسلام. وكان الشريف حسين يطلب بإلحاح أن يتم إحالة أي محادثات تمهيدية من هذا النوع إليه ليتفاوض بشأنها، ولكن بقدر ما كان الأمر يتصل بابن رشيد فإن هذه الشائعات على الأرجح دون أي أساس<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك، ومن ناحية أخرى، كان بعض كبار معاونيه يميلون بالتأكيد إلى عقد اتفاقات بغرض تخفيف الحصار، الذي نتجت عنه مصاعب عظيمة في كل من حائل والمناطق القبلية المحيطة بها على الرغم من تكرار حالات التهريب. ومن بين آخرين، كان عقاب بن عجيل، الذي عاد مع سيده من المعسكر التركي، قد تقدم فوراً تقريباً إلى لينة، حيث أرسل أخاه، ماجد، إلى معسكر فهد بن حضال، وهناك قابل الكولونيل ليتشمان

(١) توفي تركي خلال وباء الانفلونزا في ديسمبر (١٩١٨م) الموافق (١٣٢٨هـ) وخلفه أخوه سعود كولي للعهد. (فيلبي + ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن الصراعات في جزيرة العرب آنذاك ودور كل من ابن رشيد والشريف حسين في تلك الأحداث، انظر: مديحة درويش. تاريخ الدولة السعودية (جدة: دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ١١١، ١٦٧ حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٢٥٠ - ٢٥٧، السعودون، ص ٣٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(Colonel Leachman)، ومعه رتب السفر إلى بغداد لمناقشة شروط اتفاق تسهيلات تجارية مع الزبير. وفي الوقت نفسه وصل إلى الرياض رسول من ابن رمال وهو أحد شيوخ قبيلة العبد<sup>(١)</sup> حيث قال في وجودي، بينما لم يكن ابن رشيد متهماً بالاطلاع على الأمر، أن سيده يرغب في فتح مفاوضات. وهذا التصريح قد تأكد بمحتويات خطاب ابن رمال المصاغ بكلمات منتقاة بعناية، والذي رد عليه ابن سعود بأنه ما دام ابن رشيد يحتفظ بتحالفه مع الأتراك فليس لديه أي بديل إلا أن يرهقه بغارات متكررة بأقصى ما عنده من قوة. وعلى الرغم من ذلك، إذا كان يرغب في السلام والصدقة فليس أمامه إلا أن يأتي قُدماً ويقول ذلك إما له شخصياً أو للسلطات البريطانية<sup>(٢)</sup>.

وعلى العموم من المحتمل أن يكون هؤلاء الراغبون في السلام من ناحية شيوخ شمر على اختلافهم ليست لديهم رغبة حقيقية في السلام، ولكن رغبتهم الكبرى كانت ضمان مرور الإمدادات والمؤن إلى دمشق وأماكن أخرى حيث يمكن أن يحققوا مكاسب عظيمة جداً في ذلك الحين. وفي الحقيقة أبلغنا رسول ابن رمال عن حالة واحدة مهمة من حالات الإفلات من حصار الفرات، وكان المتهم يدعى ضاري بن طواله الذي وضعته أنا شخصياً في حفر ليمنع التهريب إلى إقليم شمر، ولكنه نزل إلى صفوان وأقام عملاً تجارياً مربحاً كشركة تخلص جمركي خاصة للبضائع المتجهة إلى العدو. وفي المرة التي ذكرها هذا الرسول كانت قافلة من ٥٠٠ جمل قد وصلت إلى معسكر ابن رمال بالقرب من حائل محملة بالطعام والأقمشة وبضائع أخرى واردة من سوق الزبير بتوصية من ضاري<sup>(٣)</sup>.

(١) قبيلة العبد: إحدى عشائر شمر، وهم أبناء مقدم وقديم وجعفر من عبدة قحطان، ويلتقون مع زوبع والأسلم في جد واحد من وراء طي. وطى وعبدة يلتقون في جد من معن بن كهلان بن قحطان بن يعرب الذي تنتسب إليه العرب العاربة. حمد الحفيل. كنز الأنساب (الرياض: مطابع الجاسر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص ١٧٥. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن العلاقات السياسية بين كل من الدولة العثمانية وبريطانيا وابن سعود، لوريير، ص ٥٠١، ٥٢٩، العثيمين، تاريخ المملكة، ح ٢، ص ١٠٧. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على معلومات أكثر عن العلاقات التجارية بين حائل وما جاورها من البلدان، انظر: سعد بن خلف العفنان. التجارة في منطقة حائل (حائل: إصدارات الغرفة التجارية بحائل، ١٤١٩هـ) ص ١١ وما بعدها. (ابن جريس).

هكذا كان الموقف عند بداية حملة تركي العسكرية، التي بدأت بحشد ستة بيارق<sup>(١)</sup> قوامها نحو (٤٠٠٠) رجل تقريباً، عند آبار عجبه. وفي المراحل المبكرة جداً أرسل فيصل الدويش<sup>(٢)</sup>، وهو قائد الإخوان المهيب في الأرتاوية<sup>(٣)</sup> ورئيس الأركان في جيش تركي، رسالة عاجلة إلى ابن سعود يناشده فيها على تحذير تركي من نشر قواته على مساحة واسعة جداً، وبمثل هذا المعنى تم إرسال طامي على وجه السرعة فوراً بعد عودتنا من الوادي. وكان الخطر يتمثل في أن ابن رشيد ربما يعد هجوماً مضاداً أو ينتهز الفرصة ويغزو القصيم، بينما ينشغل تركي في عمليات ضد القبائل المتناثرة في الصحراء، والذين تحركوا عبر الدهناء من عجبة عند تلقيهم أخبار اقتراب الإخوان.

ولقد تتبعهم تركي باتجاه الطريق من حائل إلى لينة، وعندما وصل إلى بئر بشوك وجد المكان مهجوراً الآبار غير كافية لاحتياجات قواته. وكان من رأيه الشخصي أن يواصل السير حتى آبار أم الرضمة<sup>(٤)</sup> وهي على مسيرة يوم نحو الشمال الشرقي، ولكن ابن مسيس (Ibn Musaiyis) رئيس مجموعة مطير في القوة، حذره من أنه لا هنالك ولا في حدقة نحو الشرق سوف يجد ماءً كافياً، وبعد جدال ساخن غلبه على العودة إلى عجبه. وهناك أتت الحملة العسكرية القصيرة إلى

(١) البيرق يساوي في العادة ألف رجل بيد أن قوة الوحدات قد تتفاوت كثيراً (فيلبي) وهذا المصطلح كان مستخدماً في الفتوحات والحروب العربية خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة. والبيرق هي كلمة مرادفة لكلمة (الراية). (ابن جريس).

(٢) فيصل الدويش (١٢٢٩ - ١٢٤٩هـ/١٨٨٢ - ١٩٣٠م): هو فيصل بن سلطان بن فيصل بن نائف الدويش، آخر شيوخ مطير، اشتهر بالشجاعة والبطش، شارك مع ابن سعود في العديد من غزواته، ثم انقلب عليه وحاربه في أكثر من موقع حتى وقع في نهاية المطاف في قبضة ابن سعود فسجنه بالأحساء حتى مات عام (١٢٤٩هـ/١٩٣٠م). انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م) ح٥، ص ١٦٦ (ابن جريس).

(٣) الأرتاوية: هي من أكبر هجر الأخوان، وتقع بين الزلفي والكويت (ابن جريس).

(٤) لقد قدمت التفاصيل المتعلقة بهذه الأماكن حسبما أعطيت لي. والتفاصيل الأكثر دقة يمكن العثور عليها في خريطة البصرة الدولية عام (١٢٤٦هـ/١٩٢٧م) (فيلبي).

نهايتها المبتسرة والمخزية؛ لأن القائد الشاب، سواء كان يعمل بأوامر واردة من ابن سعود أو مستاء من فشله في العثور على العدو، سار مصحوباً بجميع قواته من المواطنين النظاميين وعناصر الإخوان من الدهناء والفريشان إلى بريدة، تاركاً مجموعتي الغطف والأرطاوية ليلحقوه بأمتعة الجيش. وهكذا انقلب الهجوم إلى حشد دفاعي في القصيم، وتأجل افتتاح الحملة الحقيقية إلى ما لا نهاية.

في هذه الأثناء كانت التطورات غير المواتية على جبهة الحجاز قد بدأت في إثارة المخاوف من حريق هائل واسع النطاق. وكان ابن سعود قد ردّ بطريقة مراوغة على طلب المساعدة الذي جاءه من خالد بن لؤي أمير الخرمة الذي كان يتوقع هجوماً من قوات الشريف<sup>(١)</sup>. ولم يكتف بنصحه فقط بتبنيه إلى أخذ الحيطة في أعماله، ولكنه هو نفسه قد أخذ الحيطة بتحويل عناصر كل كتيبة الغطف من إخوان عتيبة التي انطلقت أصلاً لمساندة خالد، إلى المعسكر التابع لتركي. وهكذا أصبح الوهابيون في الخرمة معزولين، وقبل بداية رمضان بحوالي عشرة أيام تعرض معسكرهم في وادي سبيع لهجوم مفاجئ ودون تحذير من قبل قوات الأشرف، بقيادة الشريف حمزة، والتي أتت دون أن يلحظها أحد وأعلنت قدومها بعاصفة مدوية من نيران المدفعية<sup>(٢)</sup>.

وعندما أفاق السبيعيون من مفاجأتهم ثاروا وهجموا على العدو، وأجبروه على الفرار، حيث خسر ٢٨ رجلاً قتيلاً ومدفعاً واحداً ورشاشين، بينما وصلت خسائرهم

(١) خالد بن لؤي من العبادلة الأشرف. كانت له ولأسلافه إمارة الخرمة، كان يدين بالولاء للشريف حسين بن علي في الحجاز، ثم صار من رجال ابن سعود بعد أن قابل بعض الإهانات من أبناء عمومته الأشرف. شارك في حروب عديدة مع ابن سعود ومات في حبيبا عام (١٢٥٠هـ/١٩٣٣م). انظر، الزركلي، الأعلام، ج٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإضافات عن بلاد سبيع وبلدة الخرمة، وكذلك عن قبائل سبيع، انظر: عبدالله سعد الحضبي السبيعي. الخرمة (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ص ١٧ وما بعدها، الحقل، كنز، ص ١٣٠ - ١٣٤. (ابن جريس).

إلى خمسة قتلى. وكان خطاب خالد الذي يعلن فيه ذاك الصدام الحقيقي الأول بين العناصر المتقاتلة، الذين كانوا يناورون بصورة غامضة لكسب موقع منذ ديسمبر الماضي، قد جعلنا متأكدين من خطورة الموقف. وكان هناك خطر كبير من أن الإخوان، وهم فرحون بالنصر المبدئي، قد يجمعون تعزيزات ويستأنفون الهجوم، وفي هذه الحالة سوف تشتعل فوراً الحدود كلها من تثليث في اتجاه الشمال.

ومن ناحية أخرى، لم يكن من غير المرجح أن الشريف، وهو يتألم تحت وطأة عار هذه الهزيمة، سوف يحاول الانتقام والأخذ بثأره بقوات أكبر، وفي تلك الحالة لا يستطيع ابن سعود أن يتمنى منع جميع عناصر الإخوان في نجد من التدفق لمساعدة إخوانهم في العقيدة<sup>(١)</sup>. ولم يكن هناك شيء يمكن عمله إلا بيان خطورة الموقف للسلطات في بغداد والاتفاق مع ابن سعود على كبح جماح رعاياه عن أي عمل للأمام إلى أن تصبح نتائج إيضاحاتي للسلطات معروفة<sup>(٢)</sup>.

في تلك اللحظات تم احتواء الأزمة وتسويتها بهذه الطريقة، ولكن سوف تستغرق رسالتي أسبوعين حتى تصل إلى بغداد، وأسبوعين آخرين حتى يصلني الرد، ناهيك عن الوقت الذي سينقضي في الاتصالات التلغرافية بين بغداد، والقاهرة، ومكة. وفي تلك الأثناء كان علينا أن نلزم أنفسنا بالصبر، ونحن ندرك أنه في أي لحظة قد تأتي الأنباء بتجدد الصراع.

وفي آخر يوم من رمضان شق ركود ظهر الصيف فجأة صوت طلقات البنادق المبشرة بوصول رسل معهم أخبار طيبة جرياً على عادة الجزيرة العربية، وعندما اقتربت الأصوات مني أكثر شاهدت جماعة من الرجال الراكبين في سرور وهم

(١) مصطلح غير مقبول من فيليبي، قالجميع في الحجاز ونجد كانوا يدينون بدين الإسلام، مع ظهور بعض المخالفات التي لا تخرجهم من ملة الإسلام (ابن جريس).

(٢) يبدو أن فيليبي كان من الأقطاب الرئيسة والمهمة لحكومته بريطانيا، وبخاصة في التخطيط لما يحصل من أحداث في البلاد العربية، كجزيرة العرب وغيرها. (بن جريس).

متجهين إلى بوابة القصر، حيث نزلوا ودخلوا دون أي جلبة أكثر من ذلك، وذهبوا مباشرة إلى مقابلة عاهلهم؛ ولأنني كنت أعتقد ان هؤلاء الرسل لا بد أنهم قادمون من عند تركي، فقد طردت الموضوع من ذهني، وأصابني شيء من الحيرة من الطريقة التي حياني بها ابن سعود عندما ذهبت لرؤيته بعد ذلك بساعة أو ساعتين. وقال: «هذا ليس طيباً» مفترضاً على ما يبدو أنني قد قرأت أفكاره. إن قوات الشريف، التي يقال: إن عددها ثلاثة بيارق، تحت قيادة الشريف زيد بن فواز، قد هجمت على الخرمة خلال الليل في منتصف رمضان، واندلع قتال عنيف تكبد فيه كلا الجانبين خسائر جسيمة وكسب الإخوان النصر مع مدفعين ورشاشين تعزيراً لذلك النصر.

وكان ولد زيد، قائد قوة الشريف، من بين القتلى. هذه هي (البشارة) التي كانت إعلاناً للساعات الختامية من الصيام العظيم.

إن حقيقة معاملة أخبار الصدام بين الإخوان وقوات الحجاز على أنها بشارة وأخبار طيبة كانت مهمة في حد ذاتها، وعندما علقت على هذه الناحية من الموضوع مع ابن سعود، رد قائلاً ببساطة واستقامة شديدة أن أخبار انتصار الإخوان على حساب الشريف أفضل من أخبار الهزيمة<sup>(١)</sup>.

لقد كان في الحقيقة مرحاً مسروراً، وحدثني طويلاً عن الخطأ المبدئي الذي ارتكبته الحكومة البريطانية بالتفاوض مع الشريف. وقال: «في يوم من الأيام سوف تتدمون بحسرة على سياستكم الخاطئة، ليس عندي رغبة في التدخل بشؤون الحجاز، ولكن يجب أن تعلموا أنه ليس أمامي إلا أن أصدر أمراً، وسوف يتدفق حشد عظيم إلى لوائي من جميع الأنحاء من بيشة ونجران، من رنية وتثليث ومن

(١) في الحروب عادة يكون هناك غالب ومغلوب، والمهزوم يلحقه الخسارة المادية والنفسية بعكس المنتصر. (ابن جريس).

أماكن أخرى<sup>(١)</sup>. وكل واحد منهم واثق تمام الثقة أن الموت خير من الحياة، ليس واحداً فقط بل إنهم كلهم سيموتون من أجل الجائزة الكبرى، وكل منهم واثق أن الفرار أو التردد ليس له جزاءٌ إلا جهنم بكل تأكيد».

إن الأخبار في الحقيقة لم تأت من الخرمة نفسها، ولكن من أحد موظفي ابن سعود الذي كان يعمل على جمع الزكاة من قبائل عتيبة وقحطان في المنطقة المجاورة والتقى مصادفة مع لاجئ عتيبي من قوة الشريف. ولم أستطع إلا أن أشير إلى أن هذا الهجوم الثاني قد وقع قبل أن يتسع للشريف الوقت لتلقي أي اتصال من السلطات البريطانية. وكنت لا أزال متحفظاً بصبري، وشعرت أن معرفة أن أهل الخرمة بإمكانية تأنيهم، لحظة الحاجة، في مواجهة هذه القوات التي يرسلها الشريف ضدهم قد ذهبت بعيداً لأخذه للتصالح وضرورة التحلي بالصبر. وقد أدرك تماماً أن اندلاع الأعمال العدائية بينه وبين خصمه ستكون سيئة على مصالح كل الأطراف المعنية، بالرغم من وجود قليل من الشك في أن الحسين كان يرغب في إثارته لخرق السلام علانية لكي يضطر بريطانيا العظمى إلى التدخل<sup>(٢)</sup>.

وقال لي ذات يوم: «لو لم يكن الخلاف العلني بيني وبين الشريف مصدراً من مصادر البهجة للأتراك، ففي الحقيقة ليس هناك شيء أبغض من هذا لي. وبالنسبة لعبدالله، فهو خسيس ومؤذي».

وكما ستبرهن الظروف فيما بعد، فإن (ملاحظته العابرة) هذه لم تكن أبداً بعيدة عن الصواب.

(١) إن فيليبي في هذه الفترة كان يعمل بشكل كلي لمصلحة بريطانيا، والملك عبدالعزيز يعرف ذلك، لكن من مصلحته أن يكون قريباً منه مثل هذا الرجل، ليكون على صلة وثيقة بما يحاك له أو ضده من البريطانيين، أو ممن لهم صلة به، كالأشراف في الحجاز، وآل الصباح في الكويت وغيرهم. (ابن جريس).

(٢) كانت الخدمة من المواطن الحساسة في الصراع بين ابن سعود والأشراف في الحجاز، للمزيد من التفصيلات انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨٣ وما بعدها، ابن هذلول، ص ١٢١ - ١٢٢، أحمد السباعي، تاريخ مكة (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ج٢، ص ٦٢٧ وما بعدها. (ابن جريس).

في عصر اليوم التالي ليوم العيد، جاء إبراهيم الجنيفي<sup>(١)</sup> عن عمد ليأخذني في رحلة خلوية بحديقة الحوطة حيث وجدت ابن سعود ورفاقه يجلسون على راحتهم دونما تكلف على العشب النضير في حديقة من أشجار الخوخ. وهذه أول مرة أخرج فيها من أسوار المدينة منذ عودتي من الجنوب، وأول تجاربي مع مجتمع الرياض بعد عودتها إلى أحوالها الطبيعية عقب الصيام. كانت المجموعة تضم كلاً من فيصل بن الرشيد، وأحمد بن ثيان، وعبدالله أخ ابن سعود، والأميرين الصغيرين محمد وخالد وفيصل بن حشر شيخ قبيلة قحطان وولده الصغير، وآخرين<sup>(٢)</sup>. لقد جلسنا وتحدثنا زمناً حول صينية كبيرة من العنب اللذيذ من بستان العنب المجاور لنا، ثم انتقلنا إلى حديقة أخرى، وهي حديقة بأئسة إلى حد ما تسمى قميح لكي نتفحص قطعاً من النوق الحلوب الملكية التي جمعت في فناء قصر متهدم، كان قد بناه تركي الكبير ودمره بعد ذلك ابن الرشيد.

إن فيصل بن حشر، وهو محارب ذو صيت ذائع ووهابي مهيب، والذي لا يسبقه في مجالس سيده إلا الدويش العظيم، كان يحضر أحياناً مقابلاتي مع ابن سعود خلال رمضان، وقد لفت انتباهي كرجل موهوب ببديهة غير عادية، وكان يسمح لحقائق السياسة بأن تخفف من المبادئ المثالية للدين. ومهما يكن من أمر، ففي حضرته عموماً كان ابن سعود يناقش بحرية نواحي مختلفة من سياسته وإدارته، والتي لم تكن يسيرة الفهم على ذوي الذكاء المحدود لأغلبية أتباعه ومن مثل مثيري القلاقل كالديوش. ولقد رافق سيده إلى البصرة في (١٩١٦م)، وهو يبدو في حضرته دائماً، ربما لأنه لا يمكن تركه ليحكم ويبقى بأمان في محيط قبيلته. وعندما غامرت بالسخرية منه على زيارته لمثل هذا المستقع من الخبث وعدم

(١) إبراهيم الجنيفي كان رئيساً للديوان الملكي في بعض فترات حكم الملك عبدالعزيز. (ابن جريس).

(٢) هؤلاء الأفراد من الأولاد ورجال الملك عبدالعزيز أثناء فترة تأسيس الدولة. (ابن جريس).

الصواب أسرع ابن سعود بالشرح قائلاً: إن معظم وقتها كانا يقضيانه في صحبة وثيقة مع مضيفهما الإنجليزي، وإنهما لم يريا إلا قليلاً من المسلمين المحليين.

عند ذلك انتهز الفرصة وانطلق في أحد موضوعاته المفضلة، وهو المزايا النسبية للنصارى والمسلمين غير الوهابيين، والذين جمعهم جميعاً في فئة المشركين<sup>(١)</sup>. لماذا؟ قال: «إن كان لكم أيها الإنجليز أن تعرضوا علي بناتكم للزواج منهن فإنني أقبلهن زوجات، مع شرط واحد فقط وهو أن الأطفال نتيجة هذا الزواج يجب أن يكونوا مسلمين، ولكنني لن آخذ من بنات الشريف أو من أهل مكة أو المسلمين الآخرين، الذين نعتبرهم مشركين<sup>(٢)</sup>. إنني قد آكل من لحم ذبحة النصارى دون استفسار نعم ولكن المشرك، الذي يشرك آخرين مع الله في العبادة، هذا هو ما نبغضه. أما بالنسبة للنصارى واليهود، وهنا اقتبس نصاً من القرآن، فإنهم (أهل الكتاب)، ومع ذلك، وهنا سمح لنفسه بطريقة ساذجة نوعاً أن ينحدر بشكل مضحك إلى التناقض، من (أنني لا أحب اليهود، إنهم جديرون بالاحتقار والازدراء بسبب حبهم الشديد جداً للمال).

ومع أن ابن سعود كان مخلصاً في دينه كما العهد به إلا أنه مقتنع تماماً بالمزايا العملية لتحالفه مع البريطانيين، وبدا لي في تلك الأيام أن أي شيء مثل رد الفعل الودي من جانبنا سوف ينتج عنه بالتأكيد وبصورة دائمة تأسيس التسامح مع النصارى كعنصر أساسي في العقيدة الوهابية. وعلى كل حال في تلك الأيام كان مثل هذا الاعتراف بسلوكه الشخصي في حضرة أحد من القادة البارزين في قضية الإخوان لن يمر دون أهمية.

(٢٠١) الحكم على المسلمين، بصرف النظر عن مواقعهم الجغرافية، بهذا الوصف غير مقبول ومرفوض شرعاً. (ابن جريس).

وفي مناسبة أخرى كان ابن سعود، الذي كان يشعر بشيء من التعب نتيجة إصابته بمرض الصفراء، والذي أراد أن يعالجه بدواء مقيئ، منهمكاً عندما وصلت في المناقشة مع ابن حشر لشروط تسوية نزاع حديث نشب بين قبيلتي مرةً وبني هاجر؛ والأخيرة هذه كانت قريبة لقحطان، وشمر أيضاً. وعندما دخلت وجدت العاهل الوهابي يرتل آيات من القرآن، والتي استمر فيها حتى النهاية، بإلقاء شبه موسيقي ينخفض أحياناً إلى النبرات العادية<sup>(١)</sup>، وبعدها أغلق الكتاب وقبله بتبجيل قبل أن يناوله مع غطائة من القماش الأحمر إلى الجنيفي ليضعه بعيداً. والآيات محل الترتيل سواء كان قد اختارها من أجل تهذيب فيصل وتويره أم لا إذ من الصعب أن نقول ذلك، كانت عن موضوع النصاري، وقد ذكر ابن سعود، عن طريق شرح الآيات والالتفات إليّ، أنه على عكس فيصل، كان من نسل إسماعيل «أي أولاد عمكم، لأنكم من نسل إسحاق». وقال: إن الأتراك كانوا أولاد إبليس؛ لأن أصلهم من التتار<sup>(٢)</sup>. وهكذا دخلنا في مناقشة طرائقه الإدارية، ذلك المزيج من القسوة التي لا تلين، والكرم غير المعقول، وهي التجربة التي بدت أنها النظام المثالي في بلد أهله من البدو. وخلال تلك الأيام من عمليات تركي على حدود شمر كان فيصل قلعة من القوة لسيده، يغربل التقارير، الرسمية وغير الرسمية، الواردة من الجبهة، ويقدم المشورة عن المسار الصحيح الذي يجب اتباعه ويساعد على تبديد الانطباع الذي يكتسب أحياناً أرضية في الدوائر الدينية من أن مغازلة ابن سعود مع بريطانيا العظمى تحرفه عن الطريق المستقيم لقضيتهم. ففي إحدى المناسبات، بعد يوم العيد فوراً، أثار زيارة إلى رئيس القضاة والعلماء الآخرين مناقشة تقدم سير الحرب،

(١) إطلاق لفظة (موسيقى) على قراءة القرآن وترتيبه كلمة غير سليمة، لأن تلاوة القرآن وترتيبه لا تعد من الموسيقى كما يفعل النصاري واليهود في كنائسهم عند ممارسة طقوسهم الدينية. (ابن جريس).

(٢) هذه ليست حقيقة علمية، فالأتراك جاؤوا من الشرق، ومنهم التتار وغيرهم، وللمزيد عن تاريخ الأتراك، انظر: زكريا كتابجي. الترك في مؤلفات الجاحظ (بيروت: دار الثقافة، د.ت) ص ٢٤ وما بعدها، عبدالعزيز اللميلم. نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثرها في قيام مدينة سامراء من (٢٢١ - ٢٧٩هـ) (د.م. دن، ١٠٤١هـ/١٩٨٩م). جزءان. (ابن جريس).

وأعلن ابن سعود خلالها أنباء هزيمة النمساويين في معركة بيف (Piave)<sup>(١)</sup>، وعند ذلك نطق سليمان، وهو الشاعر والواعظ في الرياض، دعاءً بوجود ثبوت حقيقة هذه الأنباء. وأخبرهم ابن سعود أيضاً بالقصة التي قتلها له قبل وقت قصير عن ادعاء قيصر (الإمبراطور) بأنه رسول الله، وردوا جميعاً على ذلك بصورة محمومة «الله<sup>(٢)</sup> يقطعه» أما بالنسبة للإنجليز، هكذا قال علماء الدين «فإنك تستطيع أن تعتمد على كلمتهم وهم لا يشغلون أنفسهم بعقائد الآخرين»<sup>(٣)</sup>. وهكذا بكل وسيلة متاحة في حدود طاقته كان ابن سعود ت أكثر استعداداً لحملته العسكرية القادمة، يضع أسس القبول العام لسياسته الأساسية في التحالف مع بريطانيا. وانتهت الرحلة الخلوية بصلاة عند الغروب، وقبلها انسحبت بحذر وكتمان إلى حديقة خزام حيث تمتعت نفسي بمشاهدة ثعلب يجول خلصة في أحواض نبات الفصفاة خارج السور إلى أن حان وقت العودة للبيوت. وفي عصر اليوم التالي، وبعد مناقشة عقيمة في الصباح مع أحمد بن ثيان بخصوص الترغيب في إنشاء مجلس من ممثلي الدول المستقلة المختلفة في الجزيرة العربية للنظر والبت في جميع الأمور محل النزاع بينهم<sup>(٤)</sup>. وسيكون رئيسه بريطانياً. وافترض أحمد كمبدأ أساسي لا يقبل النقاش أن جميع المنازعات سوف تصدر فيها قرارات تكون في صالح ابن سعود. والتقينا مصادفة مرة أخرى لرحلة خلوية في حديقة البديعة التي تخص الإمام عبد الرحمن. وهي الحديقة مشهورة بأنها أفضل الحدائق في الواحة كلها، على الرغم

(١) لمزيد من التفاصيل عن هزيمة النمسا في معركة بيفيت، وعن الحروب الدامية التي وقعت في أوروبا ما بين عامي (١٣٢٢ - ١٣٢٧هـ) (١٩١٤ - ١٩١٨م)، انظر: هارولد تمبرلي، و. أ. ج. جرانت. أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩ - ١٩٥٠م) ترجمة محمد علي أبو درة، ولويس إسكندر (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، د. ت) ج٢ - ١٨٠ - ٢٢٩. (ابن جريس).

(٢) الذين ادعوا النبوة كثر على مر التاريخ، وقد شاهدنا في صدر الإسلام أكثر من شخص ادعوا لأنفسهم هذه الميزة العظيمة، وهم كاذبون أمثال: الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة وغيرها. (ابن جريس).

(٣) هذا غير صحيح فالإنجليز هم سبب الفتن السياسية والعقدية التي مازالت نشاهدها في بلاد المسلمين، مثل قضية فلسطين، ومشكلة كشمير وغيرها. (ابن جريس).

(٤) أغلب هذه الدول ممثلة اليوم في مجلس دول التعاون الخليجي. (ابن جريس).

من أن مظهرها هذه السنة ذابلٌ نوعاً ما وسبائطُ تمرها رقيقة. ومع ذلك كانت أشجار الخوخ محملة بالفاكهة وشيكة النضج، وتعريشة العنب التي تغطي مساحة هائلة. وكان هذا منظرًا جميلاً بعناقيد العنب الكبيرة المتدلّية في الظل الظليل لأغصانها المتشابكة<sup>(١)</sup>. وجلسنا في ظل شجرة سدر كبيرة بجوار مجرى ذي خريز من قنوات الري، نأكل الفاكهة ونتجاذب أطراف الحديث بلا تكلف. وكان صيام رمضان قد نال إلى حد ما من قوة ابن سعود ونشاطه، واقترح عليه أحمد<sup>(٢)</sup> فيما يشبه المزاح أنه يجب أن يرسل إلى الكويت لإحضار مجموعة من الأدوية (المقوية). وهنا أعربت عن دهشتي من عدم وجود إمداد كافٍ من الأدوية وعدم وجود طبيب كفاء في الحقيقة بالعاصمة، وتطوعت بجلب الأخير إن كان مرغوباً<sup>(٣)</sup>. وإنني أود أن يكون عندي طبيب جيد، ومسلماً إن أمكن، على الرغم من أنني لن أعترض على رجل إنجليزي إذا تعذر جلب طبيب ومسلم من الدرجة الأولى. وهذه مسألة سوف أناقشها معك في وقت آخر<sup>(٤)</sup>. ومن سوء الحظ كما ثبت بعد ذلك أن الموضوع هذا لم يتجدد أبداً بيننا، وأن وباء الإنفلونزا الإسبانية الذي غزا وسط الجزيرة العربية في الشتاء من تلك السنة، قد وجد الأسرة المالكة والناس بصورة عامة بلا وقاية<sup>(٥)</sup>. وقد أرسل على عجل إلى الدكتور هاريسون بالبعثة الأمريكية في البحرين، ولكنه وصل متأخراً جداً لإنقاذ بعض من كبار ضحايا هذا المرض القاتل.

(١) كان يوجد في الرياض آنذاك العديد من الحدائق والمتنزهات الجميلة التي أصبحت اليوم ضمن منطقة المربع وسط الرياض. للمزيد عن جغرافية وحضارة مدينة الرياض، انظر: الجاسر، مدينة الرياض، ص ٢١ وما بعدها، وليام فيس، ص ٢٢ وما بعدها، فهد الكليب، الرياض، ص ١١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) يقصد بـ (أحمد) هنا: أحمد بن ثنيان. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفاصيل عن بداية الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية، انظر: العثيمين، تاريخ، ج٢، ص ٣٤٦ - ٣٥٠، بدر بن عبدالعزيز الربيعية «تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية (خلال مائة عام)» بحث مقدم في مؤتمر المملكة العربية السعودية للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م). (ابن جريس).

(٤) كلام الملك عبدالعزيز كان موجهاً إلى فيليبي. (ابن جريس).

(٥) الأمراض، كالحمى، والانفلونزا، والجذري، والطلاعون وغيرها كانت من الأوبئة الأكثر انتشاراً بين الناس أثناء ذلك العهد الذي يتحدث عنه فيليبي. (ابن جريس).

في الساعة الخامسة عصرًا من اليوم التالي أي الموافق الثاني عشر من شهر يوليو قيل لي إن ابن سعود قد ركب خارجاً من المدينة، وإن حصاناً صغيراً كان قد أعد لي إن رغبت في اللحاق به. وهكذا ركبت، وكان السرج غير مريح بالمرّة، والركاب المتدلي كان حبالاً عادية من نوع شديد الخشونة، وخرجت من البوابة الشمالية الشرقية مروراً بمصلى العيد، وفيه أحصيت نحو خمسة وعشرين صنفاً كما يتضح من أقدام المصلين، ثم تجاوزت خيام البدو في البطحاء إلى حديقة تسمى العود والتي بجوارها انتظرنا عند قدومنا أول مرة إلى الرياض حتى أعطيت لنا إشارة الإذن بالدخول إلى المدينة. والمساحة شرق الحديقة كانت مليئة بخيام البدو، وفي إحدى أكبر هذه الخيام، التي خصصت لهذه المناسبة، جلس ابن سعود وسط جمع غفير. وكان أطفال أخيه سعد الصغار موجودين هناك، وفهد أيضاً، وعندما ألقيت عليه التحية جاء متقدماً بقليل من الخجل وعرض وجهه لقبله، والتي أعطيتها له كما ينبغي. ومحيميد الشاب كان هناك أيضاً، وإبراهيم الجميعة، الذي لم أكن أتحدث معه حتى الآن بالطبع. وفي وسط الخيمة جاء رسولٌ من البحرين، وأصروا على قراءتي بصوت عالٍ لمحتويات مجموعة من برقيات رويتر التي تلقيتها. وكان الانتصار الإيطالي على أرض معركة بييف قد تأكد مع بعض التعديل على اكتمال المعلومات الأصلية، وكان الحاضرون قد سعدوا بتقرير عن أن الألمان أنهم أخذوا يأكلون القطط والكلاب بسبب نقص الغذاء الخطير عندهم<sup>(١)</sup>. وعن أحد البنود الواردة في حقيبتني للبريد، وهو بند كنت أرحب به ترحيباً غير عادي، سكت عنه بحذر وكتمان، لأنه كان عبارة عن مؤونة من التبغ والسجائر الواردة من الوكيل السياسي البريطاني في البحرين المعروف بذكائه وتقديره للآخرين<sup>(٢)</sup>.

(١) لمزيد من التفاصيل عن الحرب بين الألمان واعدائهم في معركة بييف (Piave)، انظر: هارولد تمبيري، أوربا في القرنين (١٩م/٢٠م)، ج٢، ١٦٢، وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) فيلبي في هذه الفترة كان يعمل بشكل كلي لمصلحة حكومته بريطانيا (ابن جريس).

في تلك الليلة جاءني ابن سعود زائراً في القسم المخصص لي من سطح القصر، ومكث لما يزيد على ساعتين يناقش الموقف الذي يواجهه الآن. وقال منذ العيد وهو لا يشعر بأنه طيب، ليس بسبب أي مرض أو تعب ولكن بسبب القلق وحده. وكان قد بدأ يحس بالقلق منا<sup>(١)</sup> في ذهنه، ويشعر بأن سلوكنا نحوه لم يعد ودياً كما كان من قبل في الأيام الأولى لبعثتي. وكان يعزي هذا التغير إلى احتمال تدهور ثقتنا فيه وقال: ليس هناك أحد في الوجود، مسيحي أو مسلم، لديه أسباب أكثر وجاهة لبغض الأتراك أكثر منه؛ إنه يكرههم ليس لأسباب دينية فقط، ولكن لأنهم دائماً يردون على الحسنة بالسيئة. ففي سنة (١٩٠٤م) عندما كانوا يرسلون قوات نظامية لمساعدة ابن الرشيد ضده، هزمهم في البكيرية ولكنه سمح لهم بالرحيل سالمين إلى البصرة والمدينة. ومرة أخرى عندما استولى على الأحساء في سنة (١٩١٤م) سمح للقوات التركية بأن ترحل مع أسلحتها. إن الاستيلاء على الأحساء نفسه قد فُرض عليه فرضاً للدفاع عن نفسه، لأن الأتراك قد استخدموا موقعهم هناك للضغط عليه بأسلحة اقتصادية، وكان يخشى عودتهم إلى هذه الأصقاع مرة أخرى لأنه قلق على مستقبل دينه، ولأنهم حتماً سوف يجهبزون أنفسهم مرة أخرى؛ للقضاء على حياته وحياء وأرواح شعبه<sup>(٢)</sup>. وفوق كل هذا وذاك، وعلى الرغم من أنه كان يتابع طبعاً تطورات الحرب الأوروبية باهتمام شديد، وكان قلقاً من نتائجها إلا أنه لا يشك أبداً ولو للحظة واحدة أن الخليج والعراق سوف يظلان في أيدي بريطانية؛ لذلك لديه حافز واضح على أساس ذاتي محض لأن يسعى إلى علاقات أكثر وداً وصداقة معنا<sup>(٣)</sup>.

(١) المقصود بكلمة (منا) أي الانجليز الذين ينتمي لهم فيليب. (ابن جريس).

(٢) حول الصراعات بين الملك عبدالعزيز والدولة العثمانية في الأحساء وما حولها عام (١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، انظر: أبو علي، دراسات في تاريخ الجزيرة، ص ١٠٩ - ١٢٤، ٣٣٩، لوريير، ص ٥٠١ وما بعدها. وللمزيد عن بلاد الأحساء، انظر: ف. ش. فيدل. واحة الأحساء (الرياض: مطابع الجمعية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ص ١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) ما يذكر فيليب هنا يدل على عمق سياسة الملك عبدالعزيز وقدرته على استقراء الأحداث السياسية، وعمما سوف تسفر عنه. (ابن جريس).

وقد أكدت له أن ولاءه لم يكن أبداً محل تساؤل فيما يتصل الأمر بنا، ولكني رجوته أن يدرك أن أعداءه لم يملوا أبداً من التحريض والإشارة إلى عجزه عن الإنجاز، وعلى عدم قدرته السيطرة على المهريين في دولته أو على إحراز أي نجاح عسكري كاسح. وقبل سفري إلى الجنوب ذكرت له حادثة نجمت عن مشكلة الحصار في الكويت خلال شهر إبريل. فقد جاء اثنان من قبيلة العقيل وهما قاسم بن رواف ومحمد بن دخيل واللدان لهما اهتمام ببعض البضائع التي يحتجزها ضابط الحصار (المقاطعة) نازلين من سوريا حتى وصلا إلى الزلفي أو ما جاورها، ولديهما نية صريحة على تهريب البضائع إلى العدو<sup>(١)</sup>. واعترف ابن سعود أنه يعرف أن هذين الشخصين محل التساؤل وليس عنده أية أخبار عن تحركاتهما المزعومة، ولكنه وعد بالتحري. وعند عودتي أخبرني أن كلا الرجلين في الرياض، وفي اليوم التالي أرسل لي أحمد بن ثيان ومعه عريضة شاذة من أهل القصيم يعلنون فيها أن البضائع المحتجزة ملكٌ لأيتام وأناس بريئين تماماً. بعد ذلك رفضت أن أتدخل على أساس أنني لو فعلت ذلك فإنني أقوم بشيء ضد ابن سعود، خاصة وأن القصة كانت واهية تماماً وبشكل واضح ولا يمكن قبولها على علاتها. وقال ابن سعود: إنه لن يحقق في هذا الموضوع احتراماً لما شهدت به، بيد أنه اقترح أن نقوم بمقابلة المتهمين معاً. وقد قمنا فعلاً بذلك كما ينبغي في صباح اليوم التالي، وكانت قضيتهما كما ذكرها بنفسيهما كالآتي:

أولاً: أنهما كانا في بغداد في وقت احتلالها من قبل البريطانيين.

ثانياً: أنهما انتقلا بعد ذلك إلى البصرة بتصاريح بريطانية رسمية.

ثالثاً: أنهما في الكويت قابلا الشيخ سالم، الذي نصحهما بعدم وضع اسميهما في

(١) لمزيد من التفصيلات عن التجارة والطرق التجارية بين بلاد الشام والعراق وبين نجد والقصيم في الجزيرة العربية، انظر، العقيمين، تاريخ، ج٢، ص ٣٥٠.

طلبات الحصول على تصريح المرور من الحصار، وهذه النصيحة أخذها بلا ارتياب، بينما نسباً شخصيتهما إلى جماعة أمير الزلفي.  
 رابعاً: أنهما كانا فعلاً في الكويت عندما تم حجز البضائع، ولكن الشيخ سالم أمرهما، عندما توسلا إليه، أن يغادرا المدينة مع باقي أهل نجد. وقد قلت لهما إنهما قد ارتكبا عملاً غيبياً بالتعامل مع الشيخ سالم بدلاً من التوجه مباشرة إلى سلطات الحصار البريطانية، والآن اقترحت وجوب عودتهما إلى الكويت مع عهد بالأمان مني ليشهدا بقضيتهما. وإذا كانت قصتهما حقيقية فإن بضائعهما أو قيمتهما سوف تُردَّ إليهما.

وقد وافق على هذا الاقتراح، وهكذا انتهت قصة ناشئة فقط من مكائد الشيخ سالم، الذي كان كل همه الشاغل أن يفقد ابن سعود مصداقيته<sup>(١)</sup>.

وعلى العموم فقد أكد لي أن عندي مبررات تامة لرأيي الذي طرحته من أنه منذ بداية السنة كان حصار القصيم فعلاً تماماً باستثناء حالة واحدة التي كان نادماً عليها والتي بشأنها كان يتخذ إجراءات صارمة ليلقي القبض على المجرمين ويجعلهم عبرة من خلال عملية إعدام بسيطة. وقد أعلنت جماعة من البدو عن عزمها على الذهاب إلى الحجاز، واشترت حمولة نحو سبعة جمال من البضائع والأقمشة في القصيم. وبعدها انطلقت على درب المدينة تحولت عند هيت وهويت ودخلت في بلد ابن الرشيد، ومنذ ذلك الحين لم يُسمع عنها شيء أكثر من ذلك. وقد أصدر ابن سعود الآن أوامره نتيجة لهذه الحادثة بأن لا ينتقل أحد من نجد إلى الحجاز<sup>(٢)</sup>.

(١) لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين ابن سعود وأمير الكويت الشيخ سالم الصباح، انظر: السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ١٩٦، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٢٨٧ الخترش، ص ٩١، جمال زكريا قاسم. الخليج العربي: دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٩١٤ - ١٩٥٤م) (القاهرة، دن، ١٩٧٣م) ص ٥٠، حسين خلف الشيخ خزعل. تاريخ الكويت السياسي (بيروت، دت، ١٩٦٢ - ١٩٦٥م) ج٢، ص ١١٦، ج٤، ١٠٧، ١٢٤، ١٣٥، ٢٠١ - ٢١١. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن المواصلات والصلوات التجارية بين نجد والحجاز، انظر: العثيمين، تاريخ، ج٢، ص ٣٥٠ وما بعدها.

انتهت مقابلتنا الطويلة عن هذه الحادثة بتكرار تأكيدات أنه سوف يهاجم ابن رشيد في المستقبل القريب، وكنت قد استطعت أن أوضح له أنه انطلاقاً من مسؤوليتي الخاصة وبنقطة كاملة في وعده، قد وضعت بعض الأموال تحت تصرفه، ومن ثم ليس بمقدوره أن يتوقع أي مزيد من العطف أو التنازلات إلا بعد أن يبهر ثقتي فيه بالكامل. وقلت له: إن التجربة قد علمتنا أن نرتاب قليلاً في وعود العرب وتعهداتهم، ولكننا لن نقصر معه أو نخذله إذا أثبت أن ارتيابنا أو شكنا في أمره كان بلا مبرر<sup>(١)</sup>.

في عصر اليوم التالي، عندما استدعاني الجنيفي للحضور<sup>(٢)</sup>، وجدت ابن سعود يعترض بغضب على بعض التصرفات التي من الواضح أنها تظهر بين الفينة والأخرى في صفوف الإخوان من أناس غير ضالعين في العلوم الوهابية الذين يقدمون للناس تفسيراتهم الخاصة للنصوص الدينية. إنه لن يتسامح مع مثل هذا النوع من الأشياء ولن يدعه - كما أعلن - يفسد أخلاق شعبه، الذي تتاح له فرصة وفيرة في أن ينهل من معين الحقيقة من وعاظ موثوقين<sup>(٣)</sup>. ولم أعرف أبداً ما هي مناسبة هذا الانفجار، ولكنه انتهى ببعض الحديث عن اليهود منتقياً من قدرهم

(١) لا شك أن بريطانيا كانت متعاطفة نوعاً ما مع الملك عبدالعزيز ومساندة له، لكن لا أحد يجهل ذكاء الملك عبدالعزيز وحكته السياسية التي أوصلته في نهاية المطاف إلى التغلب على خصومه، ثم نجاحه في توحيد أجزاء المملكة العربية السعودية. لمزيد من التفاصيل، انظر: لوريير، ص ٥٠١، حافظ وهبة، ص ٢٥٠، العثميين تاريخ، ج٢، ص ٥٧ وما بعدها، محمود شاكر، نجد، ص ٢١٢، فان دورمولين، ص ٥٥، فيليبي، العربية السعودية، ص ٥١٥ وما بعدها، الشهيل ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) الجنيفي: هو إبراهيم الجنيفي رئيس الديوان الملكي. (ابن جريس).

(٣) من يطالع مراسلات ووثائق الملك عبدالعزيز إلى جميع شرائح المجتمع يجده يصير على توحيد الألوهية والربوبية لله الواحد القهار، ثم إن مصادره في سياسة دولته مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ للمزيد انظر: محمد الخميس. عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية ودفاعه عنها (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٣١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ١٧ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز، ص ٣٣ وما بعدها، كمال الكيلاني. عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، عبد الله التركي، الملك عبدالعزيز، ص ١٠٥ وما بعدها، عباس محمود العقاد. مع عاهل الجزيرة العربية (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، د.ت)، ص ١٣ وما بعدها، محمد رفعت المحامي. أسد الجزيرة قال لي ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

وهم كما قال، حرمهم الله تعالى إلى الأبد من أن تكون لهم أمة. وبحسب المعتقدات الوهابية فإن جميع الطوائف الأخرى من المسلمين تعد من بين المرتدين بينما التسامح يمتد إلى النصارى<sup>(١)</sup>.

وبعد الظهيرة لحقت أنا والجنيبي بالجماعة الملكية في حديقة الخزام<sup>(٢)</sup>، ولدهشتي وسعادتي العظيمة كانت الجماعة تضم محمد بن فهد من الأسياح، الذي استضافني بلطف شديد خلال زيارتي للأفلاج، والذي جاء الآن في زيارة للعاصمة. وقد قام ابن سعود، الذي كان في مسحة بهيجة، بممازحته بشكل لطيف لأبناء عمومته، أي أسرة الأشراف، عندما كنا نجلس كالعادة حول طبق كبير من العنب. وكانت الأطلال التي كنا نجلس بينها قد دفعتني إلى بعض الملاحظات عن كثرة مثل هذه المشاهد في الجزيرة العربية. وعندها قال ابن سعود، وهو يشير إلى فيصل ابن رشيد: "إنه هو وقومه المسؤولين عن جميع هذا الدمار، أدعو الله أن يدمر بيت ابن رشيد كما دمر بيوتنا". وعندما اقترب الغروب، نادى مطالباً ب (الورد)<sup>(٣)</sup> وهو مختارات من القراءات في القرآن أو الحديث تقرأ عادة قبل صلاة المغرب، واستأذنت منصرفاً بصحبة الجنيبي وعطا الله. وفي أثناء عودتنا لبيوتنا عن طريق حديقة الشمسية صادفنا اثنين من الشوام<sup>(٤)</sup> هما صبري أفندي من دمشق وموسى فرعون من القدس، واللذين كان قد أتيا إلى نجد منذ عامين لشراء جمال للأتراك وقبض عليهما ابن سعود بطلب من السلطات البريطانية وحبسهما منذ ذلك الحين

(١) فيليبي خلط معلوماته ههنا، فاليهود هم الذين قتلوا الأنبياء وحرّفوا التوراة، أما قوله بأن المعتقدات الوهابية تعتبر طوائف الإسلام الأخرى مرتدة، فهذا غير صحيح، لأن المرتد لا يكون بهذه الصفة إلا إذا ترك الإسلام واعتنق غيره، ولكن هناك فرق إسلامية عليها ولها مخالفات شرعية بسبب عدم التزامها بما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن أحياء وقرى مدينة الرياض وما حولها، انظر: وليام فيسي، الرياض، ص ٣٢ وما بعدها، خالد السليمان، معجم مدينة الرياض، ص ١٧ وما بعدها، فهد الكليب، الرياض، ص ٨٥ - ٨٧ (ابن جريس).

(٣) الورد: هو قراءة شيء من القرآن والسنة يومياً. (ابن جريس).

(٤) الشوام: هم أهل بلاد الشام، وكل من يأتي من جهة الشمال يقال له شامي، أو شمالي. (ابن جريس).

في سجن مفتوح، أي لهما حرية التجول هنا وهناك ولكن ليس مغادرة الرياض. وكان هناك رجل آخر في المجموعة، وهو رجل قصير وبدين وكانت رجله موضع سخرية يدعى محمد توفيق فرعون والذي أخذ يتظاهر بمعتقدات الإخوان، والرابع، ويسمى عبدالله سمعان، قد اعتنق فعلاً المذهب الوهابي وأصبح مطوعاً يقضي وقته كله في صحبة علماء الرياض. هذان الاثنان لم أرها أبداً، ولكن صبري وموسى قد برهنا على رفقتهما الممتازة خلال نصف الساعة التي قضيناها معاً في السير بهدوء نحو البيت. وقد بدا أنهما سلماً تماماً بإقامتهما المؤقتة الجبرية دون نشاط في الرياض راضيين بشكل أو بآخر عن نصيبهما.

وكان صبري رجلاً ذا أطراف كبيرة وملامح جميلة بصورة غير اعتيادية، ومن الواضح أن أصله كان تركياً، بينما كان رفيقه صغيراً ونحياً، داكن اللون، يهتم حسب رأيي بحالة القدس حيث كان بيته في الحي الألماني فيها عند زيارتي الأخيرة. وعند دخولنا المدينة قابلنا سلطان بن حسن من الكويت، الذي تبدو عليه إمارات الصحة والأناقة، وهو خارج من باب بيته في الشارع الرئيس. وقد فشل في التعرف عليّ في البداية وبعد ذلك اعتذر بشدة قائلاً: «لقد اعتقدت أنك واحد من البدو». لأنه في الحقيقة لم يرني من قبل هذا إلا أثناء الليل على السطح مكان إقامتي عندما كنت أطرح غطاء رأسي جانباً<sup>(١)</sup>. وقال لي: إنه سوف ينطلق في هذه الليلة نفسها إلى بريدة ليمهد الطريق للحجاج المتوقع وصولهم عما قريب في القصيم قادمين من الساحل. إن فكرة هذا الحج بالبر عبر الجزيرة العربية قد نشأت بموافقة من السلطات البريطانية في العراق التي كانت شغوفة بالقدر نفسه بوجود إرسال كتبية من العراق لتقديم البيعة والولاء لنظام الحكم الجديد في الحجاز، وأنه لا ينبغي له أن يقدم أي طلب جديد يضغط على مواردنا التي تأخذها تكلفة الشحن بالكامل.

(١) المعروف عن فيليبي أنه كان يلبس زي أهل الجزيرة العربية أثناء تجواله فيها ومن يشاهد بعض صوره الفوتوغرافية يلحظ ذلك. (ابن جريس).

وقد تقدم رجل يدعى عبد العزيز بن حسن، وهو والد سلطان وكان أمير الحج البري<sup>(١)</sup>، بطلب تعيينه في وظيفة مماثلة بهذه المناسبة، وكل ما تبقى عمله هو اتخاذ الترتيبات الضرورية مع ابن سعود، وكانت الفكرة سليمة من الناحية الجوهرية في ظل الظروف، وابن سعود، الذي لم يبد أي اعتراض من حيث المبدأ، قد تحفظ فقط وبصورة معتدلة على اختيار طريق الكويت، الذي يستطيع أن يتحمل فقط، بالنظر إلى الحالة المضطربة وغير المرضية في عجمان وما يسمى بعناصر شمر "الصديقة"، التي لا تتحمل المسؤولية الكاملة ابتداءً من الدهناء باتجاه الغرب. وكان يضغط لتحويل الحجاج القادمين إلى طريق البحرين الرياض، والذي سوف يتقبل راضياً المسؤولية الكاملة عن سلامتهم وأمنهم مع توفير النقل والترتيبات الأخرى<sup>(٢)</sup>. وقد قمت بإخطار السلطات في بغداد بذلك، وأضفت إليه رأيي الشخصي من أنه إذا ما تبين أن طريق الكويت أكثر راحة وأمناً بصورة مؤكدة فإن تعاون ابن سعود التام يمكن بكل ثقة الاعتماد عليه.

وفي أثناء المراحل الأولى من المراسلات بخصوص هذا الموضوع كنت قد قابلت سلطان لأول مرة، الذي أعلن عزمه الاستقرار بصورة دائمة في بيته القديم ببريدة بسبب السلوك العنيد للشيخ سالم تجاه جميع الأشخاص من أصل نجد، والذي دائماً ما اعتاد على زيارتي بعد المغرب عندما يكون باقي الناس في الصلاة بشكل

(١) إمارة الحج كانت معروفة من عهد الرسول ﷺ، وهكذا استمرت خلال العهود الإسلامية المبكرة والوسيطية. فكان كل موكب يأتي من الشام، أو الطرق، أو مصر يصحبه أمير خاص به. والخلفاء في عهد بني أمية وبني العباس كانوا أحياناً هم الذين يتولون إمارة الحج، أو يرسلون من قبلهم من يتولاها نيابة عن الخليفة. للمزيد انظر: أبو العباس أحمد المقرئزي. الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك. تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة: دن، ١٩٥٥م) ص ١٤ وما بعدها، عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري. الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) (٣ أجزاء). (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن التجارة والطرق التجارية في الجزيرة العربية خلال عصر الملك عبدالعزيز، انظر: العثيمين، تاريخ، ج ٢، ص ٣٥٠.

مؤكد. وفي مناسبة أخرى كان قد أحضر لي علبة صغيرة من التبغ المحلي، وقد كانت تعزيزاً مقبولاً للمخزون المتناقص عندي<sup>(١)</sup>. وقد أوضح التأكيدات الجادة لرغبته في أن تعارفنا الذي بدأ الآن يجب أن ينضج ليصبح صداقة أبدية، وكنت دائماً أشعر أن رغبته التي يعلنها مراراً في أن يكون في خدمتي تنذر بشيء ما أو خدمة أخرى كان يريدها مني، بيد أن تعارفنا كان يزيد وينحسر خلال الشهور التي تلت ذلك دونما أدنى إشارة أو تلميح لنوع الخدمة المطلوبة. ومن المؤكد أنني قد غادرت الجزيرة العربية دون أي شعور داخلي من أنني قد لبيت مصالحه بأي شكل كان.

عند مقابلتي لابن سعود في اليوم التالي وجدته يصدر أوامره لعد طلاقات الذخيرة التي أعادتها جماعة من البدو كانت قد صرفت لهم لغرض ما. ومقابل كل طلقة ضائعة أو مفقودة كانت تفرض غرامة مقدارها ريالاً واحداً إلا إذا أمكن إيضاح أسباب ذلك بصورة مقبولة. وكانت هذه طريقته الوحيدة لاكتشاف السرقة أو الإهدار غير اللازم للذخيرة من قبل أولئك الذين صرفت لهم؛ لأن صيد الطرائد بصورة مسرفة وجميع حالات إطلاق النار تعبيراً عن الفرح كانت مرفوضة في الدولة الوهابية<sup>(٢)</sup>.

وخلال رمضان تلقى ابن سعود معلومات من ابن عسكر، أمير سدير، أن جماعة من بدو قبيلة حرب قد وصلت من الحجاز ودخلت منطقة نفوذه في قافلة من عشرين جملاً محملاً بأثني عشر ألف طلقة من ذخيرة الأسلحة الصغيرة البريطانية، والتي استلموها من الشريف لاستخدامها على ما يبدو في عمليات ضد

(١) المعروف عن فيليبي إدمانه في شرب التبغ الذي كان يحرص على اقتنائه وحمله معه في جميع رحلاته. (ابن جريس).

(٢) إطلاق النار في المناسبات الاجتماعية أو أثناء ممارسة العيد لم تكن مرفوضة كما يقول فيليبي، وإنما كانت تستخدم وقت الحاجة في الأوقات والأماكن المناسبة. (ابن جريس).

خط سلك حديد الحجاز. كان هؤلاء البدو متجهين للكويت لبيع غنيمتهم، ولكن - طبقاً لتعليمات ابن سعود بعدم السماح لأي ذخيرة بالمرور من منطقته - قام ابن عسكر بشراء الشحنة كلها. وكان سوق الكويت هو المصدر المحتمل الذي يسحب منه رجال القبائل الخليجين (الفرس) على الساحل الآخر إمداداتهم<sup>(١)</sup>. وكان من المعروف في بغداد أن هذه الإمدادات كانت تصل إليهم من الخارج، على الرغم من أنه كان من المفترض بصورة عامة أنها تأتي أساساً من العراق نفسه، حيث كان الكثير من الذخيرة قد ترك مهجوراً في ميادين قتال متنوعة لتسقط في يد رجال القبائل. ولم نبدأ إلا بصورة تدريجية أن ندرك أن جزءاً عظيماً من الذخيرة التي مدنا بها الشريف كانت تجد طريقها إلى السوق نفسه الذي لا يشبع والمعادي لنا أحياناً. وفي الحقيقة كان ابن سعود بالطريقة التي وصفناها هنا قد اشترى خمساً من مثل هذه الشحنات من الذخيرة حتى هذا الوقت، أي حوالي (٢٠٦,٠٠٠) طلقة في مجموعها، حتى يستبدل بها قدرًا كبيراً من الذخيرة القديمة والفاسدة (التركية) التي تلقاها على سبيل الهدية منا.

كما أشرت سابقاً فيما يتصل بترتيبات الحج المقترح عبر مناطق ابن سعود، كانت الصحراء الشرقية بين الكويت والدهناء في حالة من انعدام الأمن بصورة خطيرة. وكان ضاري بن طواله الذي سُحب من نطاق سلطتي وسُمح له بالإقامة المؤقتة في صفوان تحت سيطرة العراق، يجني أرباحاً طائلة عن طريق تسهيل تهريب البضائع إلى العدو<sup>(٢)</sup>. وفي إحدى المرات سمح لحمولة خمسمائة جمل بالمرور خلسة إلى ابن رمال، وكان غيابها عن حفر الباطن - حيث كنت نصبته هناك - قد نتج عنه

(١) الخليج العربي يحيط به من جهات الجزيرة العربية قبائل عربية أصيلة، بينما السواحل الأخرى التي تطل منه على بلاد إيران والعراق فإنه ليستوطنها عناصر فارسية ويخالطهم بعض العناصر العربية. (ابن جريس).

(٢) تهريب الأسلحة كانت من أكبر المشكلات التي تعاني منها بريطانيا في البلاد العربية، وكذلك ابن سعود لهذا كان كل واحد منهما حريصاً على ضبط المنافذ القريبة منه، ومراقبة تحركات تجار تهريب الأسلحة في كل من الكويت والعراق وسوريا وغيرها. للمزيد انظر، خزعل، ج٢، ٢٨ السعودون، ص ١٨٨ وما بعدها. (ابن جريس).

تمكن قبيلة عبدة من الهرب من تهديد حشود تركي لها. بيد أن المسؤولية الرئيسية عن القلق والاضطراب في هذه الأجزاء تقع على عاتق الشيخ سالم، الذي لم يترك أي فرصة لمضايقة ابن سعود، ومن المؤكد تقريباً أنه قد تفاهم بخصوص هذا الموضوع مع الشريف.

وخلال شهر شعبان وقع خلاف بين فخذي علوة وبريح من قبيلة مطير بسبب نزاع حول حقوق السقيا<sup>(١)</sup>، وقد قتل ستة من الفخذ الأول بينما خسر الثاني عدداً من الإبل. وقد عرض سالم للوكيل السياسي البريطاني أن بعض رؤساء فخذ بريح، الذين عليهم بموجب عادات الصحراء أن يدفعوا تعويضاً عن الدم المراق في هذا النزاع، قد جاؤوا إليه عارضين وضع فخذهم تحت حمايته، وأن يدفعوا له الزكاة. وكان سالم - بعدما أشار إلى اتفاق قديم يعود تاريخه إلى عهد مبارك كان بموجبه قد خضعت مطير بدفع الزكاة للكويت عند إقامتهم إقامة مؤقتة في ذلك الإقليم - قد استفسر بصورة بريئة عما إذا كان هناك اعتراض على موافقته على طلبهم. وكان الكابتن لوك (Loch) الوكيل السياسي البريطاني، قد استشعر رائحة المشكلة وأفاده بعدم قبول هذه الطريقة. وجاءت المشكلة إليّ في الرياض في الوقت المناسب، حيث كان ابن سعود قادراً بكل يسر على البت فيها والتخلص منها مرة واحدة وإلى الأبد. وكان اثنان من رؤساء بريح الثلاثة المعنيين، وهما طامي القريفة ومطلق بن مهيلب موجودين حقيقة في الرياض في ذلك الوقت فيما يختص بتسوية هذه القضية طبقاً لإجراءات الصحراء المعتادة، وأرسلهما ابن سعود إليّ لإعادة التحقيق معهما. وعندما تحدثا عن نفسيهما وعن الشيخ الثالث، مشعل المريخي فقد أنكرا بصورة صريحة تقديمهم طلباً إلى سالم الذي - كما أضافوا - كان شغوفاً بوضعهم تحت سيطرته سواء من الناحية المالية أو السياسية. وهكذا تكشف حالة أخرى

(١) كانت المنازعات بين القبائل في جزيرة العرب، وبخاصة على الماء والكلاً، من أكبر المشكلات التي تخلق دماراً عظيماً في البلاد. (ابن جريس).

كمثال على دبلوماسية سالم الساذجة، وقد كان فيما يبدو فاسداً لا سبيل إلى إصلاحه، تستبد به فكرة إلحاق الأذى بقوة بأي أحد لا يرضخ له وينظر إليه على أنه منافس عنيد ولا يشتكي إلا من الأهمية المفرطة التي توليها له السلطات البريطانية، ربما لدوافع خفية، لن تظهر صفتها الحقيقية إلا خلال تطورات ما بعد الحرب<sup>(١)</sup>.

كان سالم في معظم الأحوال لا يملك قوة يؤدي بها جاره الأكبر، ولكنه لا يعدمها في جميع الأحوال لمضايقته؛ لأنه لا يضطر إلا إلى منح اللجوء السياسي للجماعات المهاجرة التي تنطلق من شمر أو عجمان ضد القوافل المسافرة في دروب التجارة المشروعة إلى نجد، وأن يؤمن كسر طوق حصار الكويت بواسطة قنوافل أقل مشروعية، والتي يستطيع أن يقول عنها إنها قد أجزيت لها المرور إلى العدو من قبل السلطات الوهابية. وهكذا في إحدى المناسبات، في أواخر رمضان أو أول الشهر الذي يليه، أرسل ابن سعود إلى هناك وكيلاً موثقاً به، وهو عبد العزيز بن الربيعي لكي يقود قافلة كبيرة قادمة من الكويت إلى القصيم، وليتأكد من عدم وقوع تهريب للبضائع، هذه القافلة قد تعرضت لهجوم من مجموعة من أسلم (Aslam)<sup>(٢)</sup> في إقليم الكويت وخسرت حوالي خمسين جماً بجمالاً بحمولتها، وفي الوقت نفسه تقريباً قامت هذه المجموعة بجمع عدد عظيم من الإبل من المناطق المجاورة للأرطاوية. وعلى العموم فقد قيل: إن حوالي (٢٠) جمل قد سقطت في أيدي أسلم خلال هذه الأيام، ويزعم بأنها كلها موجودة في صفوان تحمّل البضائع إلى العدو بموجب تصريح من ضاري ابن طواله، تحت حماية حكومة تسعى بكل قواها إلى سد جميع

(١) لمزيد من التفصيلات عن العلاقات بين الكويت وابن سعود في عهد سالم الصباح، انظر: جمال زكريا قاسم، ص ٥٠ وما بعدها، خزعل، ج٢، ص ١٨٦ وما بعدها، الخترش، ص ٩٠ وما بعدها، هـ.ر. ديكسون. الكويت وجاراتها.

ترجمة عبد الله الحاتم (بيروت: د.ن) ١٩٦٤م) ص ٢٤٧. (ابن جريس).

(٢) أسلم، أو (آل أسلم) نسبة لمواطنهم جبل (سلمي) أحد جبال شمر، وللمزيد عن أماكنهم وفروعهم انظر: الحقي، كنز، ص ١٧١ - ١٧٤. (ابن جريس).

الطرق المتفرقة لتموين الأتراك. ولقد بدا من المستحيل - وظل كذلك حتى نهاية الحرب -<sup>(١)</sup> أن ندحض مكائد بعض أصدقائنا الذين كان غرضهم الأصلي أن يثروا بتجارة رابحة جداً، وأن يلقوا بخزي عملياتهم على ابن سعود.

إن حياة الرحلات الخلوية في الرياض خلال الشهر الذي تلا الصيام الكبير كانت متعة دائمة، ورأيها في أفضل صورها في اليوم الخامس عشر من شهر يوليو عندما قرر ابن سعود الخروج إلى البر يوماً كاملاً في بساتين نخيل باطن. وقد ركب هو وجماعته خارجين في الساعات الأولى من الصباح، ولكني لم أركب أنا إلا عندما اقتربت الساعة من الثامنة صباحاً، بصحبة الجنيفي ومناور للحاق بهم. وقد أخذت الحذر وطلبت وضع السرج الخاص بي على ظهر فرس صغير تم توفيره لي، وهو حصان فحل ذو خطوات لينة يسيرة ولكن بدون أي مزية كبيرة أخرى. وكنت قد أقتعت نفسي بقبول اللجام المحلي<sup>(٢)</sup>. ويتكون هذا من شكيمة سيئة النوع ولكنها مربوطة بإحكام في سير<sup>(٣)</sup> قصير جداً والذي لا يُمس عادة إلا لكبح الجواد عن الجري السريع. وكانت الشكيمة سلسلة مربوطة بحبل قاسٍ خشن وفي معظم الحالات كان يبدو أن هذا هو كل ما يُحتاج إليه المرء.

وغادرنا المدينة من بوابة مريقب، وسرنا من هناك عبر بساتين نخيل وأنقاض المدينة القديمة التي شيدها دهام بن دواس خلال أيام المناقسة بين الرياض والدرعية.<sup>(٤)</sup> ومن هناك كان الفرس يسير في خيب أو نختار درينا فوق سهل قاحل حتى دخلنا قناة باطن حيث التزمناها حتى وصلنا إلى الحدائق الخاصة بابن سعود.

(١) كان ابن سعود واقفاً إلى جانب بريطانيا ضد الأتراك وحلفائهم. (ابن جريس).

(٢) اللجام: أداة مصنوعة من الحديد توضع في فم الحمار أو الحصان أثناء الركوب، كي تكبح جماح هذه الدابة المركوبة من الانطلاق بشدة فتؤدي من يركبها. (ابن جريس).

(٣) السير: هو أداة مصنوعة من جلود الحيوانات، وتستخدم لأغراض عدة. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفاصيل عن الرياض في عهد دهام بن دواس، انظر: وليام فيسي، الرياض المدينة القديمة، ص ١٤٥ وما بعدها، حمد الجاسر، مدينة الرياض، ص ٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

وفي إحداها وجدنا العاهل الوهابي يخوض نسبياً غمار أسوأ مباراة رماية، حيث رمى خمسة طلقات كل واحدة منها على هدف يبعد حوالي مائة ياردة، من بندقية نوع زيقرت (Zigirt)<sup>(١)</sup> ولدة بعد ذلك جلسنا نشرب القهوة مع روائح البخور في كوخ مشيد بالطين. ثم انتقلنا إلى حديقة داخلية مسورة تنتشر فيها بكثرة ملحوظة أشجار الخوخ، وأشجار التين، وشجيرات الرمان، والعنب. وهناك تحت ظل شجرة تين باسقة ومظلّة من القش، تمددنا على سجادة بجوار جدول من ماء البئر المتدفق البراق، ونحن نتجاذب أطراف الحديث واللعب مع أطفال الملك. وقد كانت صحبة ساحرة تضم أولاد ابن سعود محمد وخالد، وأولاد أخيه محمد، خالد، وعمره حوالي أحد عشر عاماً، وسعد، وكان طفلاً ساحراً رابط الجأش معتزلاً بنفسه على الرغم من تشوهات بسبب المرض في العين، وحمود، وهو ولد فيصل بن رشيد ويبلغ من العمر حوالي ثمانية أعوام، والأيتام فيصل وفهد وسعود أبناء سعد قليل الحظ. وكانوا يلعبون مثلما قد يلعب أي طفل، ويعبثون بالطين في الجدول الصغير ويطيرون مثل جنّي صغير حول ابن سعود، الذي كان، يقذفهم بالماء بمروحة يدوية إلى أن يبتعدوا مندفعين إلى عمل مزعج آخر، ويعودون حالاً بغنيمة وفيرة من الخوخ غير الناضج.

كان ابن سعود ورفاقه قد تناولوا طعام الإفطار فعلاً قبل وصولنا؛ ولذلك جلست أنا والجنيفي منفردين على وجبة من التمر والزبد الطازج، والعنب واللبن المقشود، وبعدها عدنا للانضمام إلى الجماعة لنشاركهم محتويات صينية ضخمة من العنب والتين، بعد ذلك انسحب الأطفال، وبعد فترة، عندما تركنا أنا والجنيفي حيث كنا، أوى ابن سعود إلى نوم القيلولة في الكوخ الطيني حيث وجدناه أول مرة. وبما أنني لم أحضر معي التبغ فقد لملت أشتات نفسي ونمت تحت الظل اللطيف إلى أن أيقظتني حركات صاحبي عندما نهض لصلاة الظهر. ونهضت أنا أيضاً

(١) الرماية واستخدام السلاح من الوسائل المهمة المستخدمة عند سكان الجزيرة العربية منذ القدم وما زالت تمارس حتى اليوم، لمزيد من التفاصيل انظر، جواد علي، الفصل، ٥٥، ص ٤٢٦ وما بعدها. (ابن جريس).

واغتسلت في الجدول العذب وتجولت بحثاً عن الفاكهة، ولكن ليس قبل قيام البستاني الممتاز والنبه بتطهير بقعة مناسبة، وشد انتباهي لأداء الصلاة فيها، وقال (إنها نظيفة). وعندما أدركت أنه ليس لديه أي شك في الحالة التي كنت عليها، تملصت من إصراره الكريم وانزويت في ركن بعيد من الحديقة، حيث كوفئت بالعثور على عدد من ثمار الخوخ الناضجة في الشمس الدافئة، ومع إضافة العنب الرائع من التعريشة والرمان الناضج صنعت وجبة كبيرة إلى أن حان وقت الانضمام إلى ابن سعود مرة أخرى، الذي بعد راحة القيلولة كان قد انتقل إلى حديقته الأخرى على بُعد حوالي ربع ميل في أعلى القناة. وقد وجدناه وجماعته جالسين تحت شجرة تين كبيرة بجوار جدول من الماء يصدر من بئر عمقها عشرة قامات، وفيها ما لا يقل عن عشرة جمال تعمل في وقت واحد. والبئر في الحديقة الأخرى كانت تعمل فيها الحمير البيضاء الكبيرة من الأحساء، على الرغم من أن ابن سعود كان ينوي التخلي عنها في الوقت المناسب وإحلال الإبل مكانها<sup>(١)</sup>.

وقد تولى رشيد موقد القهوة، وكان إبراهيم يطير بسرعة من مكان إلى مكان في تذلل وخنوع، فالآن يأتي إلى الأمام ليلوِّح بقطعة من القماش أمام سيده ليبعد عنه الذباب غير الموجود أصلاً، وهو يرشف القهوة، والآن يريجه من فنجان فارغ وينسحب إلى الخلف. وقام أحد الشعراء، الذي جاء منذ زمن من حائل ولم أعرف اسمه، بإلقاء قصيدة أو قصيدتين لإدخال البهجة والسرور علينا. وقد قاد محمد ابن فهد النقاش عن قنوات الري المرتبطة بالإمكانات العظيمة في الأفلاج منطقتة الأصلية وفي الخرج. إن مزايا استخدام الآلات وجدواها في ضخ الماء من هذه الخزانات الطبيعية كان دائماً موجوداً في ذاكرة ابن سعود ووالده، ثم تحول النقاش إلى قنوات أخرى، قنوات الحرب والدستور البريطاني والذساتير الأخرى، وهلم جراً، وكان سعود بن

(١) كانت الحمير والجمال من الوسائل الرئيسية في نقل الأمتعة وجلب المياه من الآبار. (ابن جريس).

عبد العزيز بن سعود بارزاً على وجه الخصوص. وهكذا ظل الأمر إلى حين وقت صلاة العصر، عندها اختفيت للسير بمفردي في الحديقة<sup>(١)</sup>. وبعد الصلاة فوراً، حوالي الرابعة عصراً، تم تقديم العشاء في مبنى بالحديقة الأولى. وكانت الوجبة من الأرز المتبل الناضج والمخلوط بالخبز غير مكتمل النضج والذي تلوته قطع لحم الضأن اللذيذ، قد قُدمت على صوان عظيمة مرفوعة فوق قواعد. وقد جلست بجوار ابن سعود، وفيصل بن الرشيد على جانبه الآخر، عند أعلى المائدة، على الرغم من أن الساعة الشديدة المؤلة قد أنصفت المأدبة السخية إنصافاً كاملاً، لأنني لم أتناول أي شيء طول اليوم إلا الفاكهة. بيد أنني لم أكن مستعداً للبند التالي في البرنامج، وإلا لكنت قد أكلت بصورة أكثر تواضعاً؛ لأنه بعد ذلك فوراً أحضرت الخيول وركبت الجماعة كلها في رحلة العودة إلى المدينة. وكانوا كلهم، بغض النظر عن بطونهم المملوءة، يتسابقون في الركض ويتصارعون بسيوفهم وهم يسيرون، وعندما اقتربوا من المدينة تجمعت حشود كبيرة، معظمها من النساء والأطفال، لرؤية موكب الفرسان ماراً، ويحيون ويباركون أميرهم عند مروره أمامهم وهو يرد على تحيتهم بهدوء.

في اليوم التالي، وعندما كنت أجلس متحدثاً مع ابن سعود، دوت طلقتان من طلقات البنادق فجأة خلف المدينة من ناحية الشمال، ثم المزيد من الطلقات يتتابع بكثافة حتى اقترب. وقد أسرعنا إلى النافذة المطلة على الفناء أمام بوابة القصر، وفي لحظات قليلة شاهدنا أربعة من راكبي الذلول وهم يهرولون في خيب رشيق على طول الشارع.

و «هؤلاء» - قال ابن سعود - لا بد أنهم من سبيع<sup>(٢)</sup> يحملون أخبار قتال بينهم

(١) لم يكن فيلبي قد دخل الإسلام، وما زالت على نصرانيته في حين أننا نجده في كتبه المتأخرة يذكر حضوره الصلاة مع المسلمين وكذلك الحج. (ابن جريس).

(٢) قبيلة سبيع هم من أهل النجدة والنخوة، وتتألف من أرومة عدنانية، وهم بنو سبيع بن عامر من بني عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وأماكن هذه القبيلة بعضها في نجد وبعضها في الخرمة ورنية. انظر: الحقييل، كنز، ص ١٢٠ - ١٢٥. (ابن جريس).

وعصابة مشتركة من شمر وعجمان بين الإحساء والقطيف. لقد سمعت إشاعة عنه هذا الصباح ولكني لم أعتقد أنه يستحق إخبارك به قبل أن تتأكد الأخبار». وهكذا ثبت النبأ. ودخل الرجال الأربعة على ابن سعود وأنا جالس عنده. وكان أحدهم يبدو لي شيخاً بطلاً مهندياً ونظيفاً يرتدي كوفية بيضاء جميلة، بينما الآخرون أفراد أفضاظ ضخام البنية من نوع البدو العاديين. وبطريقة مباشرة قدموا التحية لسيدهم وبدؤوا حكايتهم البسيطة في فترات قصيرة حادة من البلاغة التي لا يمكن تقليدها. ثم قال ابن سعود: «انظروا ... هل هذه حكاية بدو التي تأتون بها إليّ أم هي حقيقة الله؟ إنني لا أبغي شيئاً من أوهامكم الزائفة». فردّ الشيخ قائلاً: «والله ... إذا كانت حكايتنا غير صادقة فإننا لا نستحق أي مكافأة، لأنه ليس هناك ربح من الأكاذيب». وكانت حكايتهم تقريباً على النحو التالي.

كان المهاجمون، نحو مائة يتكونون بصورة جزئية من العجمان، ثلاثة أفخاذ منها كانوا في الحملة، وهم على وجه التحديد فخذ صالح، تحت قيادة خميس بن منيخر، وفخذ هادي تحت إمرة عيد بن مطلقم، وفخذ سفران تحت إمرة كُمعان بن مسيعيد، وقليل من أسلم تحت إمرة بن سالم بن طوالة، وهو ابن عم ضاري. وهذه الفرقة هي التي شنت الهجوم واستولت على خمسين جملاً من قافلة عبد العزيز بن ربيعي على طريق الكويت. وبعد أن أرسلوا غنيمتهم مرة أخرى إلى الأمان في معسكر ضاري بصفوان فقد عملوا عملهم في الساحل تحت حماية قبيلة العوازم وشيخها، فهد بن معتقة المشهور بلقب راعي الفحمة، وقد حطت رحالها فجأة في خيام قبيلة زعب، وهي فخذ من بني هاجر بالقرب من القطيف<sup>(١)</sup>. ولما كانت إبل زعب ترعى في المراعي البعيدة فقد واصلوا سيرهم وانقضوا دون إنذار على مخيم سبيع، واستولوا على ثلاثة قطعان من الإبل، نحو ١٥٠ جملاً في مجموعها. بعد ذلك طلبت سبيع

(١) قبيلة زغب نسبة إلى زغب بن مالك بن خفاف من امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن نزار بن معد بن عدنان. للمزيد انظر: الحقييل، كنز، ص ٢١٦ - ٢١٨. (ابن جريس).

المعتدى عليها المساعدة من زعب التي قام شيخها، عجران بن فيصل بن سحوب فوراً بتنظيم جماعة لملاحقتهم. قامت القوة المختلفة بمتابعة المهاجمين وانقضت عليهم، وهزمتهم بخسارة خمسة من الرجال منهم ابن خميسة من فخذ السليمان في قبيلة العجمان<sup>(١)</sup>، كما قتلت أحد عشر جماًلاً. وقد استردت أيضاً القطعان المسلوبة وأخذت عشرين من ذلول العدو علاوة على ذلك. وعندما كانت القوة لا تزال تتابع سيرها في تعقب العدو وجدوا لدهشتهم أنهم قد طلبوا حماية من العوازم وحصلوا عليها، وكانت العوازم شديدة القوة بحيث لا يمكن مهاجمتها. وعلى الرغم من ذلك فقد قوبل المهاجمون بمعاملة أشد قسوة مما كانوا يتوقعون، وكان المعركة نجاحاً ملحوظاً للمدافعين، الذين بدا أن زعب من بينهم قد تحملت الوطأة العظمى لذلك اليوم. وكان الشيخ الذي أخبرنا بهذه القصة هو نفسه من هذا الفخذ، لأنه من بيت شياخه، منديل بن صحوب بالاسم. من وجهة نظري كان الموقف شديد الخطورة، ومن المفترض مني أن أقتع ابن سعود بمزايا عدم اتخاذ أي إجراء بينما كان الشريف يهاجمه من الغرب بحصانة تامة ويقدر ما يتعلق الأمر بنا، وكانت عصابات العجمان وأسلم، المدفوعة بمكائد ضاري وأسلم المشتركة تهاجمه من الشرق. وفوق كل هذا وذاك كنا نعطي اللجوء السياسي لشمر الذين يهربون إلى أبوابنا أمام زحف تركي، وهناك تدمرٌ في نجد، حيث تعرضت ثقة ابن سعود العظيمة في الإخلاص الطيب للبريطانيين الخائنين لنقدٍ متزايد وانتقاص ودم شديد، عندما تراكمت الأدلة على عدم استعدادنا أو عدم قدرتنا على مساعدته. وأنا نفسي في أحيان كنت أجد صعوبة في تخليص نفسي من تيار الشك الخفي من أن السلطات البريطانية في

(١) قبيلة العجمان من أشد قبائل العرب بأساً، وهم من يام القحطانية، ومنازلهم في النقرة من الطف إلى العقير ويتصلون بالصمآن، وفي الشتاء يتوغلون حتى القصيم والخرج. وكانت من أعنف القبائل التي سببت العديد من المشكلات للملك عبدالعزيز آل سعود. للمزيد انظر: الحقييل، كنز، ص ١٨٠ - ١٨٢، السعدون، ص ١٨٥ وما بعدها، خزعل، ج٢، ص ٢٨. (ابن جريس).

بغداد، وهي تقوم بدور ثانوي بعد «المكتب العربي في القاهرة» كانت تحاول في الخفاء إخماد النار التي قد بدأت بالفعل تشتعل بشراسة في أفران نجد<sup>(١)</sup>.

ولم أكد أنتهي من الحمام والتزين في صباح اليوم التالي إلا وسمعت صوت ابن سعود بنفسه ينادي عليّ بصوت عالٍ من الفناء في الأسفل وهو يقول: «لقد أتيت لك بأخبار طيبة، لقد وصل عفشك». وبسرعة دفعت غليوني وتبغي جانباً ونهضت لتحيته عند المدخل قائلاً: «إن أخبارك طيبة حقاً، والحمد لله !! وسوف لن أنسى جزاءك التشريفي»<sup>(٢)</sup>.

منذ سبعة أشهر مضت كنت قد تركت هذا العفش ورائي في الرياض عندما انطلقت في رحلة إلى الحجاز، وكان العقيد كونليف أوين (Colonel Cunliffe Owen) قد أخذه معه عائداً به إلى الساحل، حيث ألقى به في النهاية في أحد مخازن الوكالة بالكويت. وقد كتبت لطلبه من الوكيل السياسي في أوائل إبريل ولم أنل شيئاً إلا قولهم لي: إنه لم يستطع أن يجد له أثراً. وبعد ذلك بشهرين تقريباً وجده في مخازنه، واتخذ إجراءات إرساله لي. وفي غضون ذلك كنت مضطراً للسفر إلى وادي الدواسر والعودة دون أفلام لكاميرا التصوير أو تبغ لغلينيوني. ومنذ أن رجعت كتبت إليه مراراً وتكراراً دون جدوى، وفي النهاية ها هو قد وصل، ولم تكن لفرحتي به حدود، وعدت إلى كتبي، ودخاني، وأفلامي، وماذا يعني إذا ما استغرق (١٠٤) يوماً حتى تصلني أغراضي؟

(١) يتضح لنا من ذكر هذه الأحداث عن بعض القبائل، وبخاصة في شرق الجزيرة العربية، أنها كانت مثيرة للفتن والقتال في وجه الملك عبدالعزيز. كما أن بريطانيا كان لها دور في الحصول على مكاسب تعود عليها بفائدة بصرف النظر عن حلفائها أو أعدائها من العرب. للمزيد انظر، لوريمر، ص ٥٢٩، السعدون، ١٩٧ وما بعدها، جمال زكريا قاسم، ص ٥٠، خرعل، جء ص ١٩١، الخترش، ص ٩٢، عبدالعزيز الرشيد. تاريخ الكويت (بيروت: د. ن، ١٩٧١م) ص، ٢٢٣، ٢٢٧. (ابن جريس).

(٢) إن الملك عبدالعزيز كان على علم بمهام فيليبي السرية لحكومة بريطانيا، لكنه لم يؤثر ذلك على استضافته والتقرب منه والاستفادة من معارفه، حتى يجده في نهاية المطاف يدخل الإسلام ويجلس في جزيرة العرب حوالي (٤٠) سنة، حتى صار أفضل من كتب عن هذه البلاد في عهد الملك عبدالعزيز. (ابن جريس).

بدأ الطقس الآن يكون أشد حراً بشكل مقدر في الرياض؛ فقد هبت رياح الصيف مثلما تفعل في هذا الفصل عندما تبدأ التمور في النضج، ويصبح البطيخ فاسداً وكريهاً؛ نظراً لشدة نضوجه وميله إلى إخراج رائحة يمكن إدراكها بسبب العطب. وكان ابن سعود ينسب إلى هذا البطيخ بعض آلام التعب الذي هاجم معدته مؤخراً، وأوصاني أيضاً بالانقطاع عن أكله، وهي نصيحة كان من السهل بدرجة كافية قبولها؛ لأن فواكه أخرى لذيذة مثله قد أصبحت متوفرة. وكانت درجات الحرارة بعد الظهر تصل إلى نحو (١١٠) درجة فهرنهايت، وأصبحت الحياة في الرياض مألوفة ومتكررة بصورة كافية جعلتني أتوق لافتتاح الحملة العسكرية الموعودة وحياة الحركة والنشاط وسط المراعي الجديدة التي سوف تجلبها معها.

بيد أنه حتى الآن لم يتحدد حتى ولو تاريخ تقريبي لها، والأيام تتعاقب وراء بعضها برتابة البرنامج الذي لا يتغير من المقابلات والرحلات الخولية. واستمر أحمد بن ثيان في جلب الملل والضيق عليّ برحلاته التافهة في دنيا السياسة العالمية، والتي منحته إقامته المؤقتة في إسطنبول مؤهلات ترضية شخصياً. وعندما غادر تركيا قبل اندلاع الحرب كان إخوانه الأربعة قد ظلوا ولا يزالون هناك، بالرغم من أنه ليست لديه أي أخبار عنهم. وكان سعود، أخوه الأكبر، في حدود علمه، يعيش حياة مواطن عادي دون وظيفة، وفيصل الأصغر منه مباشرة قد قاتل ببسالة في حرب البلقان، وأصيب بجروح وترقى إلى رتبة رائد، وكل ما يعرفه عنه أنه لا بد أن يكون قد مات أو لا يزال يخدم في الحرب ضد الحلفاء. وكان الآخران، عبد القادر وعبد الرحمن، ما يزالان طفلين صغيرين<sup>(١)</sup>.

في هذه الأثناء كان ابن سعود، الذي لم يمل أبداً من العزف على مشكلة الشريف،

(١) نجد في الوثائق وبعض المراجع المختلفة أن هناك أعداداً من العنصر العربي في جزيرة العرب تركوا أوطانهم وخرجوا مع الأتراك أيام جلائهم عنها وعودتهم إلى بلادهم. (ابن جريس).

يعتقد أنه يوجد حوالي خمسمائة نجدي يخدمون مع الشريف عبد الله في المناطق المجاورة للمدينة، وحوالي ثلاثمائة مع فيصل. ومنذ شهور مضت كانت مجموعة الأخير قد حصلت على تصريح بالرحيل بأسلحتهم التي دفعوا ثمنها. وعلى الرغم من ذلك قامت السلطات البريطانية أو سلطات الشريف شرف بالاستيلاء على أسلحتهم في العقبة، وعند ذلك فقط أبدى الشريف احتجاجاً قوياً ضد هذا الإجراء. وتم التوصل إلى حلٍ وسطٍ بموجبه أعيدت قيمة البنادق إليهم. «تذكر. قال ابن سعود - أننا نحارب ابن رشيد فقط من أجلكم؛ لأننا ليست لدينا مطالب غير مستوفاة منه، على العكس إنه هو الذي له مطالب علينا بسبب القتلى الكثيرين في بيت رشيد، إن العدو الحقيقي لنجد، على كل المستويات هو الشريف، والكثير من أهل بيتي شخصياً والكثير من شيوخ الدين متذمرين مني بسبب الهجوم على الإخوان دون أن يُسمح لهم بالرد، إنني أحافظ على تهدئتهم بإفادتهم أن كل شيء سيكون على ما يرام. إلا أن الشريف يجب أن يُمنع من مهاجمة بلدي. ارسما الحدود بيننا وقولوا له ألا يتجاوزها».

وقد سألته ما هي الحدود التي يعتبرها حدوداً معقولة بالنسبة لتلك المعالم الأرضية البارزة مثل عشيرة وسهل ركبة وسلسلة جبال حضن؟

فردّ عليّ قائلاً: «إنه يستطيع أن يملك كل ذلك، وفي الحقيقة كل شيء من مران إلى ما نحو الغرب. ويمكن أن يكون حضن أشد الحدود ملائمة». إن الشريف لو استطاع أن يقنع نفسه في تلك الأيام بقبول خطٍ يربط بين مران وتربة مروراً بقناة شعب لكان تاريخ الجزيرة العربية قد كُتب في اتجاهات مختلفة جداً خلال السنين العشر الأخيرة، ولكن تفكير الشريف كان مركزاً على هدف واحد، وهو التدمير التام للدولة الوهابية، ولم يكن يعلم قليلاً بأنه كان يعمل دون هوادة على تدمير أسرته الحاكمة<sup>(١)</sup>.

(١) لمزيد من الإيضاح عن الصراعات بين ابن سعود والشريف حسين وابن رشيد، ثم دور بريطانيا البارز في تلك الصراعات، انظر: العثيمين، تاريخ، ج٢، ص ٥٧ وما بعدها، لوريمر، ٥٢٩ وما بعدها، السباعي، تاريخ مكة، ج٢، ص ٦٢٧ وما بعدها (ابن جريس).

في غضون ذلك كانت الأمور تبدو متجهة كلها نحو الإخفاق من ناحية إنجاز هدفها في الجزيرة العربية.

وفي اليوم الثامن عشر من يوليو حملت الأخبار القادمة من الكويت صدمة أخرى لابن سعود ولي أيضاً؛ فقد لاقت جهود سالم التي لا تتقطع لإبطال مفعول نطاق حصارنا نجاحاً غير متوقع، وتعرضت سياستنا للحصار إلى تغيير كامل ومفاجئ؛ ففي المستقبل لن يكون هناك حصاراً بوصفه حصاراً، وما ارتكبه سالم في الماضي من مخالفات قد عفى عنه مقابل وعده بعدم تكرارها، وقد حُملَ مسؤولية التأكد من أن البضائع لا تصل إلى أيدي العدو، وسوف يُسمح لأهل نجد بأن يشتروا دون قيد، والتفتيش الوحيد الملزم من الآن سوف يُنفَّذ في بومباي، حيث يُسمح بالصادرات فقط بكميات يحددها على فترات زمنية منفصلة الوكيل السياسي البريطاني في الكويت على أساس الاحتياجات الطبيعية لمواطني وقبائل الكويت ومتطلبات أهل نجد. وهذه الأخيرة سوف يُبلغها له عبد الله النفيسي، وكيل ابن سعود. قد يكون من الصعب تدبير خطة أفضل إعداداً من ذلك لتزويد الأتراك باحتياجاتهم، ولكن يبدو أن حكومة الهند تنظر إلى هذا التهريب إلى العدو على أنه مسألة ثانوية بالمقارنة مع نقض الاتفاق مع سالم، والذي ربما ينطوي على احتلال عسكري للكويت. في ذلك الميناء قوبل رفع قيود الحصار بالفرح، وفُسرَّ على أنه تنازل جزئي يرجع إلى الموقف غير المرضي في مسرح الحرب الفرنسية.

وفي نجد كان من المسلم به ولسبب غريب أننا نرغب صراحة في أن يحصل الأتراك على ما يريدون من ناحية الإمدادات. وسوف تنتعش حائل مرة أخرى وتكون قادرة على مواجهة الهجوم الوهابي المرتقب برباطة جأش الآن؛ لأن ابن سعود لم يعد يستطيع أن يستخدم السلاح الاقتصادي لدعم جيوشه<sup>(١)</sup>، وكان ابن سعود نفسه قد

(١) عن استعدادات الإمام عبدالعزيز لمهاجمة بلاد حائل وانتزاعها من ابن رشيد، انظر: العثيمين، تاريخ، ج٢، ص ٦٢، أمين الريحاني. تاريخ نجد وملحقاتها (الرياض: دن، ١٩٨١م) ص ١٢٢ وما بعدها، خير الدين الزركلي. شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز (بيروت: دن، ١٣٩٠هـ، ج١، ص ١٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

رفض أي مسؤولية إضافية عن تسرب المؤن إلى العدو ما لم تنزل جميع البضائع المتجهة إلى نجد في البحرين.

في عصر اليوم التالي ركبنا جميعاً خارجين إلى حديقة الشمسية وجلسنا على كومة طينية مرتفعة خارج السور نشاهد باسترخاء الصف الطويل للنوق الحلوب الملكية، حوالي مائة منها من جميع الأحجام، وهي تتهادى ببطء عائدة من مراعيها باتجاه جبل مخروق. وطول الوقت كان ابن سعود يردد بتكرار ملاحظاتة عن هذه الحيوانات وهي تمر أمامه، وظل على وجه الخصوص يراقب ناقه عظيمة قرب المؤخرة، والتي عندما لم تجد وليدها، استدارت إلى الخلف بحثاً عنه إلى أن رأت صغيرها يتبعها خلفها، وهنا التفتت الناقة الضخمة مرة أخرى واستأنفت سيرها في رحلة العودة.

وفي أثناء جلوسنا هناك جاء اثنان من البدو من قبيلة سبيع، واندفع أحد العبيد للأمام لكي يمنعهما، ولكن ابن سعود أشار له بأن يرجع ونادى الرجلين إليه. وعند ذلك بدأ أحدهما - وهو يحك فروة رأسه - يصب حكاية محنة مكذوبة. بلا دراية، أو كما قال، فقد تعديا بقطعان ماشيتهما على الحمى الملكي في الخفس عندما ألقى الحراس الملكيين القبض عليهما حيث ضربا وجرداً من أغنامهم. فقال ابن سعود: «سوف أصلح أمركما، وأعيدكما إلى قومكما». بعد ذلك نهضا ومضيا في شأنهما، ولكنهما في حماقة تركا لسانيهما يتفوهان ويتذمران بصوت عال وهما يمضيان قائلين: «آه لو لم تكن لك لكنا وهبناها بنفس طيبة مثلما حصلنا عليها، ولكننا قد جلدنا الخاسئين وهم يرتعدون». وكان هذا كثيراً جداً على ابن سعود ولم يستطع تحمله فزمجر بغضب: «أنتم كلاب، اضربوهم في الحال»، وانهاالت العصي المستعدة فوراً بصوت عال على ظهري الرجلين.

إن الحاكم الوهابي<sup>(١)</sup>، الذي تغمر قلبه الرحمة والندم على الذنب، يدرك أن

(١) إيراد عبارة (الحاكم الوهابي) مصطلح غير سليم، وغالباً ما يستخدمه أعداء ابن سعود، أو بعض الجاهلین. بمبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو المناوئين لها. (ابن جريس).

سلامة وأمن مملكته يعتمد على قمع البدو، وكان دائماً حذراً من التساهل مع أبسط إشارة من الجرأة والعدوانية من جانبهم<sup>(١)</sup>. في هذه القضية كان هناك أحد عشر خروفاً هي موضوع المشكلة، وقد حُلَّت المسألة نهائياً بالإفراج عن ثمانية، والثلاثة الباقية قد أخذت تسوية مقابل غرامة التعدي.

في صباح اليوم التالي كنت قد استدعيت للحضور خلال تناول الفطور لأسمع (البشارة) الرسمية، والتي أكدت أخبار الهجوم الثاني على الخرمة في حوالي منتصف رمضان مع تفاصيل إضافية. لقد كانت القوة الشريفة كثيرة العدد لدرجة أنهم (لا يعدهم ولا يحصيهم إلا الله) وعلى الرغم من ذلك فإن مقاتلي سبع، وعددهم أربعمائة وخمسون رجلاً فقط، أثبتوا أنهم أهل حرب إذ ضربوهم بقوة، ويعون الله هزموهم هزيمة منكرة، وقتلوا منهم (١١٥) وغنموا مائتي ذلول، بالإضافة إلى البنادق والمعدات الأخرى التي ورد ذكرها. وخسارتهم كانت عشرة رجال فقط (شهداء في سبيل الله)، منهم الشريف محسن بن تركي من أعيان الخرمة. وكان الخطاب الذي حملته الرسل يختتم بتهليل وتسبيح وحمد لله على ما صنعه يدها وبعض الكلام الصريح جداً عن تقصير ابن سعود عن أن يهبّ لمساعدة إخوانه الذين تعرضوا للتهديد بهذا الشكل. «وإذا كان خبث كنوز الدنيا هو ما جعلك لا تأتي لمساعدتنا، إذن أخبرنا بذلك، أنت يا عبد العزيز وسوف نلتمس لك العذر، إننا لم نجد أي فائدة من تكرار إرسال الرجال لطلب مساعدتك، ولكن اعلم أننا في المرة القادمة سوف نرسل لك نساءنا حتى نثير نجد».

وكانت البنادق المستولى عليها قد أرسلت إلى ابن سعود برهاناً على النصر المزعوم، والذي في الحقيقة لم يكن بحاجة إلى أي برهان، وكان يبدو شيئاً لا يصدق

(١) صرامة الملك عبدالعزيز مع جميع المناوئين والمثيرين للقلق في بلاده كانت شديدة جداً، ونتج عن ذلك استقرار الأمن واستتباب الأمور في أنحاء البلاد. (ابن جريس).

لدرجة أن القوات (الهاشمية) المجهزة تجهيزاً جيداً لا بد أنها قد تلقّت مرتين خلال شهر واحد هذه الهزائم المنكرة على يد حفنة من المزارعين والبدو. ومع خطابه أرسل أمير الخرمة أصول الخطابات الثلاثة المؤرخة في شهر ذي الحجة، أي منذ حوالي عشرة شهور مضت، والتي فيها يُبَلِّغ الشريف عبد الله إنذاره لأهل القرية<sup>(١)</sup>.

كنت قد شاهدت مؤخراً هندياً في المدينة، وعندما استفسرت من ابن سعود قيل لي: إن عدداً منهم قد وصل حديثاً في طريقهم إلى مكة، مثلما يفعلون كل عام. وكان معظمهم من نوع (ال دراويش) الذين يسافرون بشق الأنفس وبأرخص الطرق مشياً على الأقدام بشكل رئيس واعتماداً على سخاء اليمين المبسوطتين في البلاط الوهابي؛ لينالوا هدنة قصيرة من تجربتهم القاسية؛ وليحصلوا على المؤن الضرورية من الطعام والمال ليواصلوا آخر مرحلة من رحلتهم<sup>(٢)</sup>.

وكان هناك زائر أجنبي آخر جاء لغرض مختلف، وهو بغدادي له مظلمة، وكان يُدعى الشيخ طاهر لطفي ابن الشيخ إسماعيل، وغرضه أن يضمن تدخل ابن سعود لاسترداد أرضه التي ضاعت منه بالخطأ والحصول على تزكية منه للتوظيف في بعض الوظائف المريحة بالحكومة والتي حجبت عنه بطريق الخطأ. وقد كان من النوع المألوف، وكان متعلماً بدرجة كافية حتى إنه كتب خطابين وقحين نوعاً ما لابن سعود كي يوقع عليهما، وبدلاً من ذلك سلمهما لي، وكان هدفه أن يواصل السفر إلى مكة حتى يضمن دعماً إضافياً من الشريف لطلبه المزدوج. وعلى الرغم من ذلك، اتفق ابن سعود معي على أنه من الأفضل أن نعيده إلى البحرين، وكان هذا القرار

(١) لمزيد من التفاصيل عن الصراعات بين الأشراف في الحجاز وأهل الخرمة أثناء قيام الدولة السعودية الحالية، انظر: السبيعي، الخرمة، ص ١٨ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، ج٢، ص ١٨٢ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) نجد الوثائق وبعض المراجع تشير إلى بعض رحلات الهنود الذين كانوا يأتون من بلدانهم لأداء مناسك الحج والعمرة، وكان البعض منهم ينزل على موانئ البحر الأحمر الممتدة من عدن إلى القنفذة، ثم يسيرون على الأقدام، وأحياناً يستخدمون بعض المواصلات للوصول إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة. (ابن جريس).

قد تأكد بعدما قابلت الرجل بعد ذلك بعدة أيام ولأكتشف أنني نفسي كنت ممن ساعدوا على خلق الظروف التي يرغب تغييرها.

فقد أتى هذا الرجل إلينا في البصرة بصفته لاجئاً، وعومل بكل تقدير واحترام، وحصل بذلك على منحة مالية خصصت له، ولكن عندما قمنا باحتلال بغداد ومكناؤه من استعادة ملكية قطعة أرضه توقفنا طبعاً عن دفع المنحة الخيرية له، وهذا كان من الواضح هو كل السبب في مظلمته وضيقة الحالي، لقد كان ماهراً في إلحاق الأذى والإزعاج والفساد، وإذا وجد نفسه عاجزاً عن تحقيق الغرض من زيارته للرياض فمن المؤكد أنه لن يضيع الفرصة للتحدث بسوء عن الإنجليز في آذان المتعصبين المستعدين لقبول كلامه بالرياض. وهذا ما حدث بالفعل، فقد وصل إلى مسامع ابن سعود أنه مستمرٌ في دعاية نشطة ضدنا، وتبعاً لذلك كانت مغادرته إلى البحرين قد رُتبت بلا تأخير.

لا يزال الضابط التركي، قدسي أفندي، يموت كمدأ في سجنه بالحصن الكبير، وقد رجوت ابن سعود أن يسمح له بقدر أكبر من الحرية إذا كان ممكناً. فسألني: «ماذا لو هرب؟». وذكرت له رأيي من أن هذا ليس مرجحاً، وعرضت أن أقدم له الترفيه بنفسه وأخذه في نزهة سيراً على الأقدام، وعندها أمر ابن سعود الجنيفي أن يحقق في الأمر. ربما أكون قد وفرت على نفسي مشقة استجداء راحته بكثرة، ففي الحقيقة قد نال مؤخراً، بناءً على ما عرضته، سكناً أكثر راحة وحصل على سجين آخر، وهو تركيٌّ هاربٌ من الجيش كخادم له علاوة على مبلغ أربعين ريالاً لشراء الكماليات التي قد يطلبها، إلا أنه قابل عروض الجنيفي هذه نيابة عني بروح من العداء الشديد. وقال: «إنه مسيحي»<sup>(١)</sup>، وبالتالي فهو عدو، ليس

(١) يقصد بـ (المسيحي) هنا، أي فيلبي نفسه الذي يقول: إنه متوسط عند ابن سعود من أجل التخفيف بعض الشيء على هذا السجين، الذي هو الضابط التركي قدسي أفندي. (ابن جريس).

عندي أي رغبة في رؤيته، ولكن، لأنني سجين، ليس لي اختيار إذا أجبرتموني على فعل ذلك».

كان الجنيفي شديد الإعجاب به، ووصفه بأنه رجل رائع وأخبرني، أنه قد خدم عشر سنوات في اليمن، وخلف زوجة وأسرة هناك عندما بدأ المهمة التي أسر فيها. وطبقاً لما قاله كان هناك في ذلك الوقت حوالي (٨٥٥٠) جندياً تركياً في اليمن، جزء منهم في لحج تحت قيادة سعيد باشا، وجزء آخر في صنعاء تحت قيادة غالب باشا. وكان الضابط القائد في عسير يُدعى محي الدين باشا، الذي كان مع ستة آلاف رجل تحت أمرته.

في اليوم التالي كانت رحلة ابن سعود الخلوية في حديقة قرنين<sup>(١)</sup>، غرب الرياض حيث ركبت إلى هناك، كالعادة مع الجنيفي ومنور، لأنضم إليه وحيث تعرّفت على عبدالرحمن بن سويلم<sup>(٢)</sup>، وهو رجل طويل ونحيف في حوالي الخمسين من عمره، وابن نموذجي من أبناء العارض والذي ظل حاكماً للقظيف منذ الاستيلاء على ذلك الميناء من الأتراك، وقد تميزت أسرته تميزاً شديداً بخدمة آل سعود الحكام منذ أيام الدرعية. وكان سعود العرافة حاضراً مرة أخرى، وهو رجل قوي البنية متوسط العمر، ذو طريقة جذابة في الحديث، وقد أصبحت أشد إعجاباً كلما ازدادت معرفتي به بشكل أفضل. وكان نادراً ما يوجه حديثه لي مباشرة، ولكنه بصورة عامة يفعل ذلك عن طريق ابن سعود، وهو يسألني أسئلة دقيقة عن الحرب، وعن الأجهزة والطرق الحديثة في الحرب، وعن الزراعة والري.

(١) قرنين: يطلق عليها أيضاً القرنين. انظر: فهد الكليب، الرياض، ص ٨٧. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن القوات العثمانية في كل من اليمن وبلاد عسير خلال الثلث الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: سيد مصطفى سالم. تكوين اليمن الحديث (القاهرة: دار الأمين للنشر) ١٩٩٣م) ص ٤٦ وما بعدها) أيوب صبري. مرآة جزيرة العرب (الرياض: دار الرياض للنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٧٦ وما بعدها، سليمان شفينف باشا. مذكرات سليمان شفينف باشا (متصرف عسير) (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) ص ١٣ وما بعدها (ابن جريس).

وقد لاحظت أنه في مثل هذه اللقاءات كان دائماً يتأخر ليتقدم فيصل بن رشيد، الذي يُعامل على الأرجح كضيف مبدّل. وهناك شخصية مهمة أخرى، كنت قد استطعت أن أضع ثقتي الخاصة فيه بهذه المناسبة على الرغم من أنني قد لاحظته أحياناً من قبل. ذلك هو شيخ قحطاني يدعى ابن سدحان الذي يرتدي بانتظام الكوفية البيضاء التي يلبسها الإخوان<sup>(١)</sup>. والذي كان يتفادى بشكل ملفت للنظر نسبياً الجلوس على أي طبق مشترك بيننا من الفاكهة أو الأطعمة الأخرى عندما أكون حاضراً. وعلى الرغم من ذلك، فقد أسرّ الجنيفي إليّ أن الرجل كان وغداً شريراً وأنه أقتع نفسه بالمظهر الخارجي للفضيلة الدينية ليقف موقفاً حسناً في قبيلته. وطوال حياته التي قضاها في شن الغارات والسرقة يقال إنه قد أجهز على حياة اثنين وتسعين رجلاً بيده، وهذا عددٌ لم يتجاوزه إلا الدويش المرعب، الذي يحسب له حتى ذلك الوقت قطع (٩٩) فروة رأس آدمي. وعندما تحوّل النقاش إلى موضوع الفاكهة، حذرني ابن سعود من أكل الشمام بعد العسل، لأن هذا الخليط، كما أكد لي، سمٌّ قاتل. إن أكل الحمير حرام في الإسلام، سواء لحمها أو لبنها. أما بالنسبة للحم الخيول فالموقف غير واضح. إن سيدنا محمد ﷺ نفسه لم يأكل منه أبداً ولكنه رفض أن يعلن أنه حرام، وقد ترك الأمر إلى يزيد أو أحد الذين جاؤوا بعده لتقديم عادة أكله؛ أما بالنسبة للضب، وهو يشبه السحلية وله ذيل صلب، والذي لم يُقل أبداً أنه حرام؛ لأنه لم يكن موجوداً في الحجاز كما أنه غير معروف للنبي ﷺ<sup>(٢)</sup>. وكان ابن سعود يأكله في شبابه، ولكنه قد هجر هذه العادة من زمن

(١) ليس هذا اللباس كوفية كما كان يسميه فيلبي، وإنما اسمها الصحيح هو (عمامة)، وقد تكلمت عنها كتب التراث الإسلامي فذكرت أشكالها وطريقة لبسها منذ العصر الجاهلي وعلى مر العصور الإسلامية المختلفة. للمزيد انظر: غيثان بن علي بن جريس. بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص ٢٠٤ - ٢٠٦، للمؤلف نفسه «العمائم تيجان العرب» مجلة ببادر الصادرة من نادي أبها الأدبي (محرم ١٤١٣هـ عدد ٨)، ص ٦٦ - ٧١، (ابن جريس).

(٢) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع. (ابن جريس).

طويل، والجربوع كان أيضاً حالة مشابهة للضب بقدر ما يتصل الأمر بالملك. يذكر داوتي<sup>(١)</sup> أنه لم ير قططاً أبداً في نجد، ولكن من المؤكد أنها توجد في الرياض على الرغم من أعدادها القليلة<sup>(٢)</sup>، وقد وضع ابن سعود خطة لشراء حديقة صغيرة تجاور حديقة القرنين (القرنين بغرض تحويل هذه المساحة المشتركة إلى محمية يزرع فيها نبات الفصفصة<sup>(٣)</sup> (Lucerne) لأن الطلب كان شديداً والعرض قليل جداً من علف الحيوانات التي كثرت أعدادها في العاصمة<sup>(٤)</sup>، وقد أصبحت التمور صالحة للأكل الآن (٢١ يوليو) في مرحلة النضج الابتدائية التي تسمى (لون) ومن هذه المرحلة سوف تنتقل إلى مرحلة نصف النضج وتعرف باسم (بسر) والمرحلة النهائية من التمور الطازجة تسمى رطب.

كان جابر المري في الرياض خلال تلك الأيام، وفي إحدى المناسبات وجدته مستنداً على عمود في بهو القصر، ويبدو شديد البؤس ويشعر بضعف شديد بسبب الحمى. وهذه هي أول مقابلة لي معه منذ أن أبعده إبراهيم بشكل مفاجئ عن الوادي، وعندما أخذته إلى غرفتي لتناول جرعة من الكينين (دواء الكينا) سمعت لأول مرة القصة التفصيلية لخطيئة إبراهيم وظلمه.

لم يكن هناك بعوض في الرياض، إذ لم أره بأي حال من الأحوال خلال فصل الصيف هذا. ولكن كانت توجد ذبابة الرمل التي - على الرغم من أنها ليست كثيرة

(١) لمزيد من التفاصيل عن الرحالة دواتي، انظر: روبن يدول، الرحالة الغربيون، ص ٧٧ - ٨٩. (ابن جريس).  
(٢) لا تخلو بلاد نجد من الزواحف والحيوانات المختلفة والمتنوعة في أحجامها وأشكالها، انظر: أر. إي تشيزمان. في شبه الجزيرة العربية المجهولة، ٤٥٧ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) الفصفصة: هو ما يسمى بـ (البرسيم) أو (الضب) في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية (ابن جريس).  
(٤) لمزيد من التفاصيل عن أنواع النباتات والأشجار في الجزيرة العربية انظر: أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري. كتاب النبات. وهو يقع في عدة مجلدات ثم الاطلاع على ثلاثة منها نشرت في المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة عام (١٩٧٣م)، والبعض الآخر نشر في مدينة بغيسيان بالمانيا عام (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، وما زال هناك أجزاء أخرى مفقودة لم يتم العثور عليها حتى الآن، ويعد هذا الكتاب أفضل المصادر التي تحدثت عن النباتات في الجزيرة العربية، أنواعها، أشكالها، فوائدها التي لا نجدها في أي مصدر آخر (ابن جريس).

بدرجة كافية لتسبب الإزعاج والضيق - إلا أنه من الضروري أن ترتدي غطاءً في الليل عند النوم فوق السطح. وكانت العثة تزور أحياناً اللبنة القوسية على سطح القصر والتي كانت ترفع في الليالي المظلمة وتخفض بعد قراءة ابن سعود للقرآن، وكانت تزور الرياض أيضاً أسراباً من الدودة البيضاء الصغيرة، طولها حوالي نصف بوصة، ومع حشرات أخرى صغيرة كانت مجالاً للخفافيش تتحرك وتتقض عليها بحماس<sup>(١)</sup> شديد.

وفي أحد الأيام أصبت ببرد خفيف في الرأس، والذي كان ابن سعود يرجعه إلى النوم مكشوفاً للقمر، وقال: «عندما أنام في العراء فإنني دائماً أُلّف رأسي بمنديل».

وبعد صلاة المغرب في معظم الأيام كان ابن سعود يجلس لبعض الوقت ليستمع إلى قراءات من الحديث النبوي الشريف؛ والمجموعتان الوحيدتان من التفسير المقبولتان لدى المذهب الحنبلي هما التي كتبها ابن كثير في اثني عشر مجلداً والبغوي في ستة مجلدات<sup>(٢)</sup>. في هذه المناسبات كانت الآيات التي يكثر الرجوع إليها هي تلك التي تفسر الظروف التي نزلت فيها آيات مختلفة من القرآن، وأيضاً تلك التي تصف عذاب جهنم. «لكي تجعل الناس يخافون نار جهنم» كما أضاف ابن سعود على سبيل التوضيح.

إن تسلسل الأشخاص الذين يُقبل شرحهم للأحكام الربانية يبدأ بالنبى ﷺ<sup>(٣)</sup> نفسه ثم صحابته ثم التابعون أي أصحاب الصحابة، وأخيراً (تابعو التابعين) أي أصحاب أصحاب الصحابة. وكان أحمد بن حنبل من هذه الفئة الأخيرة<sup>(٤)</sup>. والاتصال

(١) شدة ملاحظة فيليبي جعلته لا يفغل عن تدوين بعض الملاحظات عن الحشرات والطيور في منطقة الرياض. لمزيد من الاطلاع، انظر: آر.اي تشيزمان، ص ٤٥٧ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) كتب البغوي وابن كثير من التفاسير المعتمدة عند أهل السنة من المسلمين، بالإضافة إلى تفاسير أخرى مثل: تفسير ابن جرير الطبري وتفسير القرطبي، وتفسير البنسني. (ابن جريس).

(٣) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع (ابن جريس).

(٤) أحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة (الثامن والتاسع الميلادي)، قابل العديد من المشكلات عن فرقة المعتزلة التي كان يدعمهم الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٢٣م)، له كتب عديدة من أهمها: كتاب المسند. (ابن جريس).

مع النبي ﷺ<sup>(١)</sup> نزولاً حتى الجيل الثالث يعتبر بشكل واضح أنه آخر درجة من البعد عن النبع الأساسي التي يمكن بأمان الاعتماد عليها في الفهم الحقيقي للنصوص الشرعية. وقد ظلت العقيدة بلا تغيير حسب ما قاله ابن سعود، لحوالي ثلاثة قرون بعد إظهارها من قبل سيدنا محمد ﷺ بيد أن الألف سنة التي تلت ذلك كانت تعج بنشر كثير من الضلالات والبدع التي أعيدت إلى منزلتها الصحيحة بواسطة المذهب الوهابي<sup>(٢)</sup>.

في الثالث والعشرين من يوليو، وبعد تحايلي على العيش شهراً كاملاً في العاصمة الوهابية، اعتقدت أنه قد حان الوقت لتذكير ابن سعود بوعده ببدء حملته العسكرية فوراً بعد نهاية رمضان. وقد ردّ عليّ قائلاً: «لقد كان عندي عزم أكيد على افتتاح الحملة العسكرية بعد الصيام، وكنت سأفعل ذلك لولا الوقائع غير المواتية في الخرمة وفي منطقة العجمان؛ هذه الأشياء جعلتني أخشى ثورة محتملة في الجنوب عندما أن أكون بأمان في الشمال» كانت هذه الإجابة تبدو لي اعتذاراً وليست سبباً واقعياً، وعدت إلى تأكيد النقطة هذه قائلاً: «إنني مقتنع أنك تعزم فعلاً على التحرك، ولكن من الصعب جداً على أن أقنع السلطات في بغداد بعزمك هذا وهم لا يرون أي إشارة على التحرك من جانبكم». فقال مجيباً: «حسناً، إنني أعطيك وعداً مني بالتحرك في مدة خمسة عشر يوماً من الآن إذا كنتم سوف تضمنون أن الشريف لن يهاجم الخرمة، وأن العجمان لن تعمل ضدي في الشرق، وأن شمر لن تدلها سلطات العراق». لقد كان هذا الأمر كبيراً نسبياً بالنظر إلى التردد والحيرة الشائعة في نصائح بغداد، ولكنني تعلقت بقشة، وهي أن التحرك كان لازماً وضرورياً. فقلت

(١) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع (ابن جريس).

(٢) من يستقري التاريخ الإسلامي فإنه يجد ظهور الفرق الضالة والمبتدعة منذ فجر الإسلام، وما زالت تظهر وتتجدد بأشكال وادعاءات مختلفة حتى يومنا الحاضر. وللمزيد من الاطلاع، انظر: مانع بن حماد الجهني. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ ص ٦٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

له: «إنني أضمن لك فيما يخص الشريف والعجمان<sup>(١)</sup>، وإذا اكتشفت أن ضمانني غير ذي جدوى فيمكنك أن تقول لي إنك لم تعد بحاجة إليّ في بلاطك وسوف أرحل». <sup>(٢)</sup> وهكذا تم الاتفاق على وجوب التحرك نحو الشمال في خمسة عشر يوماً، وكما ثبت فعلاً بعد ذلك، كان ابن سعود أسبق من الوعد الذي قطعه بيومين.

وبما أنني كنت قد اكتفيت بالوعد الذي كسبته بتملق مضيبي ومرهقاً بالكفاح الذهني، فقد تخلّيت عن فكرة خروجي الاعتيادي في المساء، وأويت مبكراً إلى النوم على السطح، حيث تمتعت نفسي بمشاهدة السطوح حولي وهي تدب فيها الحياة عندما مالت الشمس للغروب. وكان كل سطح مزود بجدران ساترة، مرتفعة لمستوى يضمن خصوصية ساكنيه. وعندما غربت الشمس وألقى الشفق ظلاً على النساء رأيتهن وهن يجاهدن بأحمالهن العظيمة من الحصر والفرش لكي يفرشنها لأنفسهن ولأزواجهن. وبعد ذلك ينزلن مرة أخرى لإحضار أواني الطبخ وأوعية الماء، بل وحتى ماعز العائلة. هذه الماعز ترسل إلى الخارج كل صباح في قطعان كبيرة مشتركة برعاية أولاد محترفين، معهم دائماً وبشكل ثابت حمارٌ يحمل طعامهم وماءهم طول اليوم. وفي كل مساء يعودون قبل الغروب ليقوموا بتوزيع الماعز على أصحابها في بيوتهم حيث يتم فوراً حلبها وربطها في أوتاد خلال الليل.

في كثير من الحالات كانت النساء تؤدي هذه الواجبات وهن يحملن طفلاً رضيعاً يحضنه بصورة شديدة تحت ذراع واحد، بينما يكون الذراع الآخر أو الرأس خالياً لحمل الأثقال التي عليهن أن يحضرنها ويرتبنها على السطح. وفي بيوت الأثرياء كان

(١) لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين ابن سعود والشريف والعجمان وموقف بريطانيا من أولئك الأطراف الثلاثة، انظر، لوريمر، ص ٥٢٩، العثميين، تاريخ، ج٢، ص ١٢٤، حافظ وهبة، ص ٢٦٢، السعدون، ١٧٠، ١٨٥. (ابن جريس).

(٢) يتصح للقارئ أن فيليبي جاء إلى نجد لمقابلة ابن سعود والعمل معه كحلقة وصل بينه وبين حكومته بريطانيا. للمزيد عن شخصية وأعمال فيليبي، انظر: روبن بدول، الرحلة الغربيون، ص ٩٠ - ١٠٢. (ابن جريس).

يقوم بهذا العمل بالطبع الإماء اللاتي كن بصورة عامة يلبسن ملابس ذات ألوان زاهية. وقد شاهدت إحداهن في ثوب خارجي فضفاض رائع اللون، كذلك يقوم العبيد من الرجال بمثل هذه الأعمال. وبين الحين والآخر قد يبرز رجل أو اثنان على السطح قبل الغروب لأخذ نفسٍ من الهواء المنعش، ولكن في معظم الأحوال كان النساء والأطفال يحتفظون بالمشهد لأنفسهم إلى أن يحل الظلام على المدينة<sup>(١)</sup>.

وفجأة، وعندما تغيب الشمس خلف حافة طويق المشرشرة، تنفجر المدينة كلها بالأصوات عندما يطلق المؤذنون الذين لا حصر لهم صوتهم بالنداء للصلاة من المآذن القصيرة السميكة. وهي أبراجٌ غريبة ذات بروز غير منتظمة إلى أعلى في أحد الأركان وعادة ما يكون الركن الشمالي<sup>(٢)</sup>. ويلى ذلك فوراً انطلاق الناس، الرجال فقط طبعاً، في الشوارع، متباطئين في البداية ثم مسرعين فيما بعد نحو المساجد. بعد ذلك يسود الصمت، ولا يقطعه إلا عبارات "الله أكبر" و "آمين" من عامة المصلين، وفي الوقت نفسه تقوم النساء على السطوح بجميع حركات وأدعية الصلاة، على الرغم من أنهن يفعلن ذلك دائماً منفردات وفي صمت. وبعد الصلاة يستأنفن عملهن أو لعبهن، وفي إحدى المرات رأيت ولداً صغيراً يلعب بسيف كبير مسلول والذي قام فجأة ودون سبب واضح بتسديد ضربة قوية لواحدة من الإماء عندما كانت تؤدي واجباتها. لقد ضربها ضربة شديدة، على ما يبدو، وابتسم فرحاً بينما اندفعت هي هاجمة عليه في احتجاج، ثم ضربها مرة أخرى وفرّ مذعوراً نازلاً على الدرج تلحقه لعناتها. وعلى سطح مجاور رأيت امرأة تنتهز فرصة خروج زوجها عندما كان ينهض للنزول للصلاة، ولقد كانت إشارات يديها وذراعيها رائعة كما يبدو

(١) يظهر في معلومات فيليبي الدقة في وصف بعض الجوانب الاجتماعية التي كان يشاهدها في مدينة الرياض. وما شاهده قد يكون متشابهاً إلى حد ما عند معظم سكان الجزيرة العربية. للمزيد انظر: محمود شاكر، نجد، ص ٢٠٧، حافظ وهبة، ص ٢١٥، حمد الجاسر، مدينة الرياض، ص ٨١ وما بعدها، فهد الكليب، الرياض، ص ٥٢ وما بعدها، وليام فيسي، الرياض، ص ٢٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) المئذنة تعد من أجزاء المسجد، وبها يستدل الناس على معرفة المسجد وتمييزه عن غيره. (ابن جريس).

وهي تستعطف بعض أنواع المعروف أو الفضل منه، وربما كانت تتوسل إليه أن يعود دون تأخير ليستمتع بالعشاء الذي سوف تعده عند عودته<sup>(١)</sup>. وهكذا أسدل الليل سدوله على المدينة العظيمة، وقد دعيت للعشاء.

في هذه الليلة قُدِّم لي لحم غزال. في أحد الأيام خلال رمضان وعندما كنت مع ابن سعود أتى إلينا أغرب عينة من جنس البشر، والذي شاء قدرني أن تسقط عيني عليه أول مرة. لقد كان قزماً في الهيئة يرتدي ثوباً من جلد الغزال يصل تماماً حتى قدميه، وهو يصدر صوتاً كصرير الباب عندما يفتح فمه ليتكلم، ومن مظهره العام يبدو نصف عاقل وهو في منتصف العمر أو أكثر بقليل، وكان من الصلب، واسمه محرق ووظيفته صيادٌ مثل الآخرين من نوع شاكلته. وكان قد جاء ليأخذ بندقية وإمداداً من الذخيرة فيما يتصل باتفاق كان عليه بموجبه أن ينطلق إلى الدهناء ليحصل على لحم غزال لأهل البيت الملكي. وقد انتهزت الفرصة لأرجوه أن يحضر لي خمسة رؤوس من أنواع الغزلان المختلفة التي قد يصادفها، وبصورة عرضية ذكّرت ابن سعود بعجل صغير من البقر الوحشي الذي كان أخبرني قبل أيام مضت أنه قد حجزه لي ولكنه للأسف قد مات، وقد وعدني أن يحصل لي على عجل آخر. منذ ذلك الحين كان محرقٌ، مصحوباً بولده، قد أنجز مهمته، وجاء بحوالي ثلاثين ذبيحة كاملة، ومن هذا اللحم كان العشاء الذي وضع أمامي في تلك الليلة.

إن العملية التي تخضع لها الغزلان بعد الذبح في غاية البساطة والفعالية. فبعد أن يُسلخ الحيوان، تفتح بطنه وتتنظف، وبعد ذلك يُرشُّ بالملح لطرد الرائحة، ثم تعلق الذبيحة في الشمس إلى أن تجف وتبدو مصنونة من الفساد، وصالحة للاستهلاك لأي مدة تقريباً من الزمن<sup>(٢)</sup>. وقبل طبخها تغسل الذبيحة بعناية لتنظيف اللحم من

(١) يبدو أن فيليبي كان لديه من الفضول والرغبة ما جعله يراقب حركات وسكنات الناس الخاصة، ثم يدون بعض مشاهداته. (ابن جريس).

(٢) هذه الطريقة في تجفيف اللحم كانت موجودة عند العرب من قبل الإسلام، وعبر العصور الإسلامية المختلفة، ويطلق عليها أيضاً اسم (قديد). (ابن جريس).

الدم والرمل والملح، وفي أثناء ذلك تستبعد أي أجزاء قد تكون فاسدة، وعندما تطبخ يكون لونها مائل إلى الأحمر الداكن، وذات طعم شديد الروعة والمذاق، ويُسمى لحم الغزال هذا (جالا).

بين الحين والآخر كانت أحداث صغيرة تذكرني بأني حقاً غريب في أرض غريبة؛ ففي ذات صباح جاءني الجنيبي بحكاية محزنة. فكان قد اقترب منه أحد النواب أو النظار، (طلاشي)، وقال له: «طهر روحك يا إبراهيم!». وعندما ردّ عليه بأنه لا يعي أي حاجة تدعوه للتطهر في هذه اللحظة قال له الرجل: «فكّر قليلاً يا إبراهيم، وسوف يفتح الله عيون روحك». فتجراً جنيبي وقال: «ربما تقصد تعودي مصاحبة الإنجليزي». وكانت الإجابة: «نعم هو كذلك»، «اذكر الله واتركه». وقد ردّ عليه الجنيبي بجرأة أن هذا أمرٌ لا يهم السائل عنه، لأنني ضيف على ابن سعود، ومن أجله ومن أجل تعزيز سياسته كان يكرر مصاحبتي. ولقد كان لا يهتم أبداً بديني وأنا أيضاً لا أهتم بدينه. وبعد ذلك بأسبوع عاد (طلاشي) للهجوم على خطوط مختلفة، فقال: «إنني ألاحظ أنك لا تحضر صلاة الجماعة»، وكان هذا غير صحيح، «وأنت في أحيان كثيرة تصلي في البيت، أصلح من طريقتك». وهنا تحداه الجنيبي، بكل الشجاعة المشهورة عن بني تميم، أن يرفع شكواه إلى ابن سعود؛ لأنه لم يستطع أن يدرك اختصاصه بهذا الأمر.

وقام هو نفسه بإبلاغ هذا النزاع إلى سيده على سبيل الحذر والحيطة من الحوادث. فكانت الإجابة: «لا تقلق، انتظر وسوف ترى». في الصباح التالي عاد الجنيبي إلى بيته بعد صلاة الفجر وعندها وجد طرقاتاً على بابه. ولما نظر من فوق الجدار الساتر على السطح وجد طلاشي مع ثلاثة أشخاص آخرين، وهم زميلٌ نائب يسمى شدى، ورجل آخر كان مؤذناً في مسجد مجاور، وتركبي بن عبد الله ابن سعود، وهو واحدٌ من فرع عريق من العائلة المالكة. في البداية رفض أن يفتح لهم

الباب، ولكن نظراً لأنهم ظلوا يدقون على الباب ويحدثون قدراً عظيماً من الجلبة فقد فتح لهم وأدخلهم. عند ذلك اتهمه طلاشي بأنه لم يذهب إلى المسجد هذا الصباح، وأعلن - مع إصراره - على أن الأمر كان كذلك على الرغم من إنكار إبراهيم المتكرر، أنه يجب معاقبته. فقال الجنيفي: «حسناً، ارفع شكواك إلى ابن سعود؛ لأنه ليس لك أي اختصاص قضائي بمعاقبتي أو محاسبتي» عند ذلك ضربه طلاشي بالعرض على الرقبة والكتف بعصاة طويلة، وكان لا يزال يتألم وهو يخبرني بالقصة<sup>(١)</sup>. وانقض الجنيفي على مهاجمته، وخنق رقبتة وسدد له لكمة بعد لكمة على وجهه وأنفه إلى أن تدخل الآخرون وأخذوا الناظر<sup>(٢)</sup> المصاب إلى الخارج. وعلى الرغم من ذلك لم يكن قد اقترب من نهاية مشاكله لأنه بعد فترة قصيرة من ذلك كان هو ورئيس النواب قد استدعيا للحضور أمام الملك، وأصدر ابن سعود حكماً بأن يقوم رئيس النواب بإيقاف مرءوسه غير المنضبط ويربطه في وتد إلى أن يعلن الجنيفي بنفسه رضاه. وقد رفض رئيس النواب هذا الواجب الذي فُرض عليه<sup>(٣)</sup>، والذي تبعاً لذلك عُهد بهذه المهمة إلى وكيل القصر حمد بن فارس، وفي حينه كان طلاشي يُجلد حتى رضي الجنيفي ثم فُصل من الوظيفة التي أساء استخدامها<sup>(٤)</sup>. في نفس الوقت تلقى تركي بن عبد الله تحذيراً خطياً بأن يهتم

(١) هذا الأسلوب الذي استخدمه طلاشي في انتقاد إبراهيم الجنيفي كونه لم يصلّ الصبح مع الجماعة في المسجد، ثم الاعتداء عليه بالضرب، فيه قسوة وعدم حنكة في معالجة الوضع. ومثل هذه الأساليب ما زالت تحدث إلى اليوم من بعض رجال الدعوة والعاملين في مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. واللين في مثل هذه الأمور مطلوب من الداعية، وإذا عجز عن الإصلاح فإنه يستخدم الأسلوب الرسمي مع جهته الرسمية، أو الأجهزة الحكومية المسؤولة. (ابن جريس).

(٢) الناظر: سماه فيلبي بهذا الاسم، وهو الواعظ أو المرشد. (ابن جريس).

(٣) في بداية تأسيس الدولة السعودية الثالثة، كان بعض الإخوان أو رجال الدولة ربما يمتنع عن تنفيذ أوامر الملك عبدالعزيز، كما حدث في هذه الحالة، ولكن الملك عبدالعزيز كان يمتلك من الفراسة والحنكة ما جعله يتجاوز مثل هذه الحالات، دون أن يتراجع في تنفيذ أوامره وقراراته. وبهذه السياسة استتب الأمن واستطاع أن يسوس البلاد بذكائه وحنكته ودهائه. (ابن جريس).

(٤) هذه العقوبة تعتبر مناسبة لمثل هذا الشخص وأمثاله الذي يفتقدون إلى الصبر، والتعقل في معالجة الأمور (ابن جريس).

بشأنه فقط في المستقبل، ويذكره بأنه ليس له أي نصيب في الحكومة التنفيذية بالبلد<sup>(١)</sup>.

ومن الأسباب الأخرى التي تضايقتني هو ميل هؤلاء القائمين على رعاية شؤوني بتثبيط الأصدقاء الآخرين عن زيارتي من أمثال جابر ومترك وغيرهما؛ ولذلك كنت دائماً مضطراً أن أكون على حذر<sup>(٢)</sup>.

ففي أحد الأيام، عندما قابلت جابر في الشارع دعوته أن ينضم إليّ في الإفطار صباح الغد. وقد جاء فعلاً، ولكن محمد بن مسلم انتهز فرصة وجودي مع ابن سعود في تلك اللحظة فصرفه وقال لي بعد ذلك: إنه لم يأت أبداً. في اليوم التالي اكتشفت صدفة تماماً من أحد العبيد أنه قد جاء فعلاً. وكان هذا أكثر مما أستطيع تحمله، وقد ذكرت رأيي بكل صراحة للجنيبي وابن مسلم عندما جاء بإفطاري. وقلت لهما: «انظرا، أنا أعلم أن جابر على مقربة منا، وحيث أنكما قد صرفتماه أمس فإنني أريد أن يتناول الإفطار معي اليوم، والأكثر من ذلك، إنني لن أكل الفطور إلا بعد أن يأتي». وبعد ذلك جرى بحث محموم عن جابر بطريقة تلفت النظر، فقد بحثنا سدى في كل ركن من الفناء الذي تطل عليه نافذتي. وعاد الرسولان ليقولا: إنه ليس هنا ولا يمكن العثور عليه، ولذلك تركت الفطور يبرد وبعد دقائق قليلة استدعيت، وأنا لم أكل بعد، إلى ابن سعود. وعندما جلست بجوار نافذته رأيت جابر يمشي داخلاً إلى القصر، وعندما عدت إلى غرفتي سألت إن كانا قد أحرزا أي نجاح في بحثهما. فقال ابن مسلم «والله، قد بحثنا في كل مكان ولكنه ليس موجوداً لكي نعره عليه». فرددت عليهم قائلاً: «لا، لقد رأيته للتو يمشي داخلاً القصر». عند

(١) هذه سياسة واضحة من قبل الملك عبدالعزيز في حكمه البلاد، فلا يسمح لبعض رجالات الدولة أن يستخدم بعض أقارب الملك كي ينفذ بعض القرارات أو العقوبات المختلفة على من أراد، كما فعل طلاشي عندما اصطحب معه تركي بن عبدالله بن سعود وبعض الرجال الآخرين أثناء معاقبة إبراهيم الجنيبي. (ابن جريس).

(٢) هذه من المشكلات التي كان يقابلها فيلبي مع بعض رجالات ابن سعود، وربما سعى بعضهم إلى تثبيط بعض رفاق فيلبي من الذهاب إليه ومجالسته كونه ما زال على دين النصرانية ولا يدين بالإسلام. (ابن جريس).

ذلك تذكر الجنيبي أنه مضطر لتففيذ بعض العمل العاجل فانسل خارجاً، وترك ابن مسلم يسمع أي شيء قد أقوله له عن الموضوع. ولم يبق إلا دقائق قليلة حيث رحل تاركاً العبيد يحرسون الأطباق التي أصبحت باردة الآن.

في الساعة الواحدة بعد الظهر قاموا بتغطية الأطباق بعناية وخرجوا خلصة، وبعد ذلك بساعة عاد ابن مسلم بسلطانية من الفاكهة، وسألني ما إذا بإمكانه أخذ الفطور فرددت عليه قائلاً: إنه يستطيع أن يمتّع نفسه ما دمت قد عزمت على عدم أكل أي شيء إلا بعد أن يظهر جابر، وعند مغادرته رقدت، جائعاً وحزيناً، لنوم القيلولة، ومنه استيقظت عند الساعة الثالثة ظهراً بعودة وكيل القصر وجابر في معيته. وقال جابر بعد أن لقنوه بعناية أقسم بالله أنه لم يُصرف أبداً في اليوم السابق، ولكنه كان غائباً عن المدينة لأنه كان مشغولاً ببناء سقف لبيته، وأنه أيضاً كان يعاني شيئاً من الحمى. وقد صرفته مع دعوته على العشاء في اليوم نفسه، وكسرت صيامي على عنب ووخوخ وتمر غير ناضجين<sup>(١)</sup>.

خلال فترة العصر عندما كنت في الخارج أتمشى نحو التل المطل على منفوحة مع منور دار الحديث عن إبراهيم، وقد دهشت عندما سمعت أنه مؤخراً قد تدنى تقديره نسبياً لدى العبيد الذين - بعد أن كانوا أقوى مؤيديه سابقاً - بدؤوا الآن يشكون من أنه يحجز جزءاً من الهبات والعطايا المخصصة لهم. كانت هذه التهمة على الأرجح بلا أساس، على الرغم من أن مظلمتهم الحقيقية ربما كانت من تقديره لمبالغ مستحقة لهم على أساس غير مقبول؛ وذلك لأن العبيد قومٌ فخورون ومغرورون بأنفسهم، ويعتبرون أنفسهم بكل المقاييس متساويين مع العرب الأقحاح، ناهيك عن

(١) أعتقد أن فيليبي كان على قدر كبير من السذاجة، عندما يدخل في مشادة مع بعض رجال ابن سعود ويضرب عن الطعام بسبب أن صديقه جابر لم يأت، بل يدعي أنه عملوا على إبعاده عنه وإشغاله بأمور لا تجعله على مقربة منه. (ابن جريس).

بني خضير من ذوي الأصل المختلط<sup>(١)</sup>. واستمر منور في حديثه مخبراً إياي عن حياة سيده الملك في المخيم بصحبة هذه الأرواح الباسمة السعيدة مثل، طامي وناصر بن سدحان اللذين يمزح معهما أحياناً بصورة مفرطة لاسيما خلال أوقات الطعام<sup>(٢)</sup>، عندها قد يأمر العبيد أن يحملوهما بعيداً حتى قبل أن يتمكننا من تذوق الطعام الموجود أمامهما. وفي إحدى المرات كان قد أخذ طامي لمهمة بسبب شواربه شديدة الأناقة والروعة، وعندما تلقى الإجابة الوقحة التي كانت دائماً جاهزة على لسانه طلب مقصاً ويديده هو نفسه قص شاربه الجميل. وهنا طالب طامي ودون خوف بتعويض مالي قدره بأربعين ريالاً مع عباءة.

وقد جاء جابر للعشاء في تلك الليلة وبقي الجنيضي بعيداً، معترداً بالألم الذي يعاني منه في رقبته نتيجة هجمات طلاشي. وكان جابر في آخر رحلة له في خدمة ابن سعود للأحساء، قد عاد بزوجته معه، وكان مشغولاً الآن بالاستقرار في بيته الجديد خارج بوابة الظهيرة بجوار المقبرة. وكانت تكلفة هذه العملية أمراً خطيراً بالنسبة له، كما شرح لي، فالخشب المطلوب قد جاء له من حضر الباطن، حيث توجد هناك أشجار الأثل الجيدة، وبالنسبة لقش السقف فقد استفاد من سعف النخيل<sup>(٣)</sup> المأخوذ من حدائق الرياض، وبعد ذلك هناك تكلفة إضافية للملاط والماء<sup>(٤)</sup>.

(١) إن المساواة بين العبيد والأحرار ليست موجودة في الشريعة الإسلامية. أما ظهور بعض العناصر المختلفة في عموم أنحاء الجزيرة العربية وبخاصة أصحاب المهن أو أخلاط الناس، فإنهم في نظر العربي الأصيل أقل درجة منه. ويؤثر ذلك على كثير من العلاقات الاجتماعية، فلا يتم بين هذه العناصر والعرب الأقحاح أي تزواج أو مصاهرة. ومثل هذه العادات كانت موجودة من قبل الإسلام واستمرت على مر العصور الإسلامية المختلفة حتى اليوم. (ابن جريس).

(٢) الظرفاء وأصحاب الفكاهة ظاهرة اجتماعية موجودة في مجالس الحكام والخلفاء والوزراء منذ عهود قديمة. ومن يطالع كتب التراث الإسلامي، وبخاصة الأدبية منها، فإنه يجدها مليئة بهذا النوع الثقافي الإجتماعي. (ابن جريس).

(٣) جريد أو حوص. (فيلبي) سعف النخل يعد من الأدوات الرئيسة في بناء البيوت في نجد وبيشة والأحساء وغيرها. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفاصيل عن الحياة العمرانية قديماً انظر، فهد الكليب، الرياض ٧٥ وما بعدها، وليام قيس، الرياض، ص ٣٤٥ وما بعدها، حمد الجاسر، مدينة الرياض، ص ٨٣ وما بعدها، محمد بن عبد الله النويصر. =

وعلاوة على ذلك كان أخوه قد أعجب بالبشت الذي أعطيته إياه وحرمه منه. ولكل هذه الأسباب كانت هناك قضية عادلة لهدية إضافية مني، ليس هناك حدٌ لجشع البدو وطمعهم؛ ففي السابق كانت عنده زوجة أخرى في القصيم، ولكنه طلقها منذ زمن طويل، كما أن لأسباب اقتصادية هي التي أجبرته أيضاً أن يعالج الحمى التي تكررت عليه كثيراً في الآونة الأخيرة بدواء رخيص مع توكل ضمني على الله<sup>(١)</sup>، وهو لم يتناول دواء سوى قرصي الكينين اللذين أعطيتهما له منذ أيام.

في اليوم التالي كانت هناك علامات سارة على الاستعدادات الابتدائية للحملة العسكرية الموعودة، فبينما كنت أجلس مع ابن سعود جيء بعشرين جملاً جرى شراؤها حديثاً إلى المناخ<sup>(٢)</sup> في الطابق الأسفل حيث تم وسمها كلها واحداً تلو الآخر بالعلامة الملكية<sup>(٣)</sup>؛ فبعد أن يُضجع الحيوان ويتم ربط إحدى رجليه بإحكام، يقوم أحد الرجال بإمسك رأسه ويلوى رقبتة العظيمة نحو السنام، ويظل ممسكاً بالشفة السفلى وغضروف الأنف ما تجعله يبدو كما لو كان يحاول أن يصرف انتباه الحيوان بأقل ألم ممكن وغير مؤذ في هذا الاتجاه، بينما ينشغل رجل آخر بقضبان الوسم على الربيع الخلفي الأيسر. ويصدر بعض الصوت أثناء كي اللحم الحي وانبعاث فورة من الدخان عندما يُوضع القضيب الساخن على لحم الحيوان. وينتج عن ذلك تمايلٌ عنيف من الحيوان الذي من شدة الألم قد ينفك في معظم الحالات من رباطه ويفر هارباً على ثلاثة أرجل إلى أن يُمسك به ويُعاد مرة أخرى لإنجاز العملية. وهي في

= خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية (منطقة نجد) (الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٩٩٩م/١٤١٩هـ)، ص ١٥ وما بعدها (ابن جريس).

(١) التوكل على الله أمر أساسي عند المسلم المؤمن الصادق، كما ورد في القرآن والسنة، وليس ضمناً كما يذكر فيلبي. (ابن جريس).

(٢) يقصد بـ (المناخ) هنا أي الحوش أو المكان الذي تحجز فيه الإبل حول البيوت والمنازل. (ابن جريس).

(٣) وسم الجمال عادة عربية قديمة، بل كانت لكل قبيلة وربما كل أسرة وسوم خاصة بها لا يشابهها ولا يشاركها غيرها فيها. للمزيد انظر: جواد علي، الفصل، ج ٧، ص ١١١ وما بعدها، هند بنت حمود الحيسوني. وسوم الإبل عند قبيلة حرب (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ)، ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

حالة وسم ابن سعود، تشتمل على أربع عمليات منفصلة للمبسم<sup>(١)</sup>، تستخدم كل واحدة منها العمل كجزءاً منفصلاً من العلامة. وذات مرة سألت ابن سعود: «ماذا يسمى وسمك؟». فردّ قائلاً: «نعم، إنه اسمٌ غير مألوف من الأزمان الماضية، هل قال لك أحد أي شيء عنه؟». ولم يزد على ذلك شيئاً، وتذكرت بشكل غامض أن طامي قد استهزأ من هذا الاسم ذات مرة. من المؤكد أن الاسم كان ذا دلالة ذكورية، والعلامة نفسها بلا شك انحدرت من عهود الجاهلية، ولا يمكن أن تكون من أي مصدر آخر. فهي مكونة من قضيب معه دائرتان ودائرة ثالثة تحيط بهم جميعاً. وطبقاً لما قاله ابن سعود فإن وسم الوجه البشري وجميع تلك العادات مثل رسم الوشم يحرمها الشرع الإسلامي.

لقد بقي لفترة الآن عكر المزاج بشكل واضح، ربما، حسب تصوري، من قسوة رمضان التي تلتها استعادة الوجبات العادية، التي تشمل جزءاً وثيراً من الفاكة. إنه هو نفسه - على كل حال - كان ينسب ذلك إلى الفترة الطويلة بصورة عادية، التي قضاهها في الرياض، حيث الماء والهواء ملوثان بالمقارنة مع أحوال الصحراء. وأضاف قائلاً: «ربما أيضاً أن هذا يعود إلى القرب الشديد من المقبرة الكبيرة». ويبلغ عمق حفرة الدفن (للحد) حوالي أربعة أقدام من سطح الأرض حيث يوضع فيها الجثمان ثم يُمدد فوقه سعف النخيل قبل أن يُردم التراب عليه، وبالنسبة للمذهب الوهابي فإن التابوت حرام<sup>(٢)</sup> وكذلك عادة حرق الجثمان<sup>(٣)</sup> مثل ما هو معتاد بين الهندوس،

(١) الميسم: قطعة الحديد التي يستخدمها الواسم لوسم الجمل، تترك في النار حتى تحمر، ثم توضع على مكان محدد من جسم الجمل كي تكون علامة بارزة يعرف بهذا الجمل من بين غيره من الجمال الأخرى التي قد تحمل نفس الوسم أو تختلف عنه. (ابن جريس).

(٢) يقول فيلبي إن التابوت لا يجوز في المذهب الوهابي، وهذه صياغة خاطئة، فالتابوت لا يجوز في نص الشريعة الإسلامية الصافية. ثم إن مصطلح المذهب الوهابي أيضاً غير سليم، لأنه لا يوجد في شريعة الإسلام مذهب بهذا الاسم، وإنما دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت حركة تجديد وليست مذهباً. (ابن جريس).

(٣) حرق الجثمان من العادات القديمة الموجودة عند بعض المجتمعات والحضارات غير الإسلامية. أما الدين الإسلامي فهو يحرم حرق الميت، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله عز وجل. (ابن جريس).

يعد ذلك شيئاً بغيضاً. وقد جادلته بأن خبراءنا يعتبرون حرق جثث الموتى أفضل وسيلة صحية للتخلص من الموتى، واعترفت له أنها عادة شائعة إلى حد كبير في أوروبا، وفي أثناء ذلك شرحت له أننا في جميع هذه الأمور نتمتع بقدر كبير من الحرية؛ لأنه لا توجد قوانين تحد من ممارستنا لها. وقد اتفق معي بسهولة على أن الطريقة الفارسية (الزرادستية) كانت أسوأ شكل من أشكال الدفن كلها.

في العصر تجمعنا لنذهب إلى منتجع ابن سعود المفضل، وهو الضفة الواقعة خارج سور حديقة الشمسية. وقد ركبت فرساً صغيرة رمادية جميلة على نحو خاص كما كان ابن سعود على فرسه المفضلة، وهي حيوان رائع يتحمل حملته بصورة فائقة. وكانت تسمى «كحيلة» رباها شمر جريح الجزيرة، وكانت مملوكة سابقاً لسعود الصالح ابن سبهان<sup>(١)</sup>، وقد أخذت غنيمة عندما فرّ من ميدان القتال في معركة جراب<sup>(٢)</sup>، وجاء بها أسرها البدوي وقدمها هدية لابن سعود. وقد قال لي ابن سعود: «ثلاثة أشخاص باسم سعود ميّزوا أنفسهم بالفرار ذلك اليوم، سعود السبهان، وسعود بن الرشيد نفسه والثالث - قالها في مرح وسرور - كان سعود العرافة، الذي يجلس هناك بجوارك». وكان صاحب الاسم الأخير لا يزال حتى هذا الوقت في عداد الأعداء، والذي كان يُطالب بالعرش الوهابي<sup>(٣)</sup> دونما حق، ولكنه استسلم بعد معركة جراب، ومنذ ذلك الحين أصبح مؤيداً مطيعاً لابن عمه الأكبر.

وفي أثناء جلوسنا هناك شاهدنا مرة أخرى الموكب الذي أصبح الآن مألوفاً من النوق الملكية الحلوب وهي تتابع طريقها الشاق في العودة لمرباطها. وتباطأ واحد من

(١) لمزيد من المعلومات عن أسرة آل سبهان في بلاد حائل، انظر: فهد العلي العريفي، حائل (الرياسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ٨٢. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على أحداث معركة جراب بين ابن سعود وابن رشيد، انظر: العثيمين، تاريخ، ج٢، ص ١٤٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) يقع فيلبي في أخطاء عندما ينسب بعض الأعمال أو الأسماء إلى كلمة (الوهابي) نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب، فيقول: (المذهب الوهابي)، (الملك أو العرش الوهابي) وجميع هذه المصطلحات وما شابها خاطئة علماً وشرعاً وتاريخاً وعرفاً. (ابن جريس).

صغارها من التعب خلف القطيع، وظل يتأخر في المؤخرة إلى أن توقفت آخر ناقة في انتظاره. وهرع الصغير فوراً إلى رضاعة لبنها، وبينما هو يفعل ذلك توقفت ناقة أخرى وسارت للخلف لتتأمل المشهد. فقال ابن سعود: «هذه هي الأم الحقيقية والأخرى أم من الرضاعة فقط، لأنك ينبغي أن تعلم أنه عندما تلد ناقتان من نوقنا الحلوب في وقت واحد تقريباً فإننا نذبح واحداً من صغارها وندع الآخر ليكون ولداً لكلتا الناقتين. وهذا يعني توفيراً كبيراً في اللبن». وكان ابن سعود يعتقد أن جمال الحمل والركوب الخاصة به في ذلك الوقت يبلغ عددها حوالي (١٥٠٠) جمل بعد الخسائر الفادحة التي تكبدها خلال السنة بسبب وباء الجرب<sup>(١)</sup> الذي ضرب نجد، والذي جاءت به حيوانات من الحجاز كانت قد أرسلت إلى هناك مع الحجاج النجديين في العام الماضي. لقد عادت جميعها مصابة بالعدوى من ناحية عملية، ومع أول حرارة من الصيف الحاضر كان ما لا يقل عن (٤٠٠) أو (٥٠٠) حيوان من جماله الخاصة قد نفقت. والأسعار التي كان يشتري بها الجمال في تلك اللحظة للحملة العسكرية القادمة كانت تتراوح بين (١٠٠) إلى (١٦٠) ريالاً.

وفي أثناء جلوسنا هناك كان الخدم يدرّبون الخيول، يعدون بها على الأرض المنبسطة وينفذون حركات قتال وهمي، وكان عدد كبير غير معتاد من الحيوانات موجودة في الخارج هذه المرة، وكان معظمها يبدو رائعاً بشكل استثنائي في حركاته، على الرغم من أن قليلاً من صقل مهاراتها كان سيحسّن من أدائها جميعاً بعد التدريب على الحركات. وفي وقت لاحق خاض ابن سعود وأخوه عبد الله مباراة في الرماية على هدف صخري يبلغ ارتفاعه (١٨) بوصة وعرضه ست بوصات تقريباً، مقاماً على مسافة (٥٠) ياردة، ولكن من أصل عشر طلقات لكل منهما لم تصب إلا طلقة واحدة من ابن سعود والتي مسّت طرف العلامة مساً رقيقاً. بعد ذلك تطوع إبراهيم الجميعة الذي كان كثيراً

(١) الجرب: مرض يصيب الحيوانات وبخاصة الإبل، وأحياناً يفتك بها ويقضي عليها، والقطران (عصارة شجرة العرعر والزيتون) يعد من الأدوات الجيدة في علاج هذا المرض. (ابن جريس).

ما يذهب إلى المقدمة ليسلم الذخيرة وغيرها إلى المتسابقين، بأن يتفوق عليهما، وعندها ووسط هتافات السخرية أطلق أسوأ طلقتين يمكن أن يتمنى المرء رؤيتهما. وسأله ابن سعود باستهزاء إن كان يصوب على العلامة أو على التل البعيد خلفها<sup>(١)</sup>.

وبعد مدة طويلة جيء بالورد كمقدمة تمهيدية لصلاة المغرب<sup>(٢)</sup>، وركبت وجعلت الفرس يخب في العودة إلى البيت، وعدت داخلاً المدينة من الشرق ماراً بمجموعة من أكواخ البدو التي جرى منها الأطفال الصغار، عراة أو مرتدين أثواب بيضاء متسخة خارجين في لهو ليسدوا الطريق علينا. وقد عدونا في خب لطيف نحوهم، وعندها تفرقوا وهم يتصايحون بمرح ويهتفون بالتحية إلينا. كان الوقت قد اقترب من أداء الصلاة، ولم يبق في الخيام إلا النساء، اللاتي يلبسن ملابس فضفاضة حمراء مع القناع الأسود القاسي المعتاد وبه فتحات كبيرة للعيون<sup>(٣)</sup>، والذي كان يتناقض بقوة مع غطاء الوجه الذي تلبسه نساء المدينة من القماش الموسلين الأسود الناعم الضيق، والذي يربطه حول الوجه والرأس ويترك طرفاً واحداً منه حراً متدلياً ليسحبينه إلى جنب أو بعرض الوجه لإخفائه عند الحاجة<sup>(٤)</sup>. وواصلت طريقي حتى استدرت جانباً على أمل أن أرى بيت جابر الجديد، وقابلت بعض الأولاد وسألتهم أن يدلوني عليه. فردوا عليّ في خفة وبهجة «جابر المري؟»، نعم، حقاً، البيت الذي بينيه، إنه هناك، تعال وسوف ندلك عليه». لقد ذهب جابر نفسه إلى الصلاة، بيد أنني رأيت المنزل، مجرد هيكل غير مكتمل من الجدران الطينية التي ما زالت رطبة ولا تزيد في ارتفاعها عن ياردة واحدة.

(١) إن القنص والصيد بالنبال والبنادق وغيرها كان من الرياضات الموجودة والمحبة عند مجتمع الجزيرة العربية قديماً. (ابن جريس).

(٢) قراءة شيء من القرآن، أو ما يسمى ب (الورد) صباحاً ومساءً، وأحياناً قبل الصلوات المفروضة، كان من الصفات التي يداوم عليها الملك عبدالعزيز. (ابن جريس).

(٣) يقصد بهذا اللباس أي (البرقع) الذي تلبسه المرأة على رأسها ووجهها. (ابن جريس).

(٤) هذا نوع من الحجاب، ونشاهد استخدامه بكثرة عند نساء اليوم. (ابن جريس).

وعندما دخلت القصر وجدت ابن مُسلم وبلال، وهو أحد العبيد، يلوكان بذور البطيخ، الذي يُعتقد أن به بعض الخواص المثيرة للشهوة الجنسية. وكان ابن مُسلم سيء السمعة حتى في الرياض بسبب انغماسه المفرط في الجماع، وكان أحياناً يستفسر مني إذا ما كنت أعرف أي دواء ناجع يساعده في الشهوة. وقد أجبته بغير صدق: «نعم، أعرف كثيراً منها ولكن ينبغي أن تعرف أنها كلها أخلاط من أدوية تحرمها شرائع الإسلام». أحياناً يشعر المرء برغبة لا تقاوم في إيقاف هؤلاء القوم من انغماسهم حتى الثمالة في الشهوة الجنسية بمجرد الادعاء أن استخدام مساعدات اصطناعية للمتعة قد يُعرض مستقبلهم في الدار الآخرة للخطر<sup>(١)</sup>.

في التاسع والعشرين من يوليو، ومتأخراً بحوالي شهر تقريباً عن ميعاده الطبيعي طبقاً لكافة الحسابات، تلقينا أول تمر من الرطب، وكانت نزحات العصر تتجه نحو قصر خزام حيث - من بين الجماعة - قابلت محمد بن عبد الله بن مهنا، آخر أمير من سلالته على بريدة، والذي تمرد على ابن سعود وفر بعد هزيمته، ولكنه فيما بعد قد خضع، وهو يعيش الآن متقاعداً في راحة واحترام بالرياض<sup>(٢)</sup>. ولم يعد بالإمكان العثور على عائلته في مدينتها الأصلية، فمعظم أفرادها الباقون على قيد الحياة قد هاجروا إلى سوق الشيوخ. وعندما كنا نجلس هناك نتحدث تقدم رجل غير جذاب ذو خدين أجوفين، في ثياب بسيطة وجلس بالقرب من ابن سعود ودار بينهما حوار هامسٌ طويل. لقد كان هو إبراهيم، القائد الثاني للنواب<sup>(٣)</sup>، وهم جماعة مهابة مكونة من حوالي ثلاثين أو أكثر من الأفراد ذوي الوجوه المتجهمة الكريهة، والذين كان رئيسهم عبد العزيز بن عبداللطيف، أخو الشيخ الكبير عبد الله بن عبدالوهاب. وكان

(١) إذا كانت ممارسة الجنس بالطرق الشرعية والحلال، فالشريعة الإسلامية لا تحرم ذلك، وإنما المحرم هو الجنس غير المشروع كالزنا وما شابهه. (ابن جريس).

(٢) نجد في تاريخ البلاد السعودية الحديث أسماء أشخاص عدة تمردوا على الملك عبدالعزيز في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية، ثم خضعوا في نهاية الأمر لسلطته ونالوا رعايته واحترامه وتقديره. (ابن جريس).

(٣) يقصد بالنواب هنا: المشائخ ورجال الدعوة والحسبة. (ابن جريس).

فيصل بن الرشيد شديد الاهتمام عندما ذكرت له أنني أقرأ وصف داوتي<sup>(١)</sup> لحائل منذ أربعين عاماً عندما كان هو نفسه لا يزال طفلاً، والآن يبلغ ما يزيد عن أربعين سنة. وهو ربما يكون واحداً من أطفال حمود المشار إليه في القصة. وسألني: «هل كان هو الذي يقوم بالتطعيم؟ الذي اعتدنا أن نسمع عنه حكايات».

في اليوم التالي وصلت غنائم الخرمة، وهي مدفع سبعة رطل وبنوقية آلية، مع خطاب من خالد بن لؤي يصف فيه المعركة وسجل بأسماء القوات الشرفية الذي عُثر عليه بين الأوراق التي تم الاستيلاء عليها، ويبين أن إجمالي القوة كان (١٦٨٩) رجلاً<sup>(٢)</sup>. وطبقاً لما قاله ابن سعود، الذي كان قد انتهى لتوه من التشاور مع الشيخ عبدالله وإلى حد ما غاضب نتيجة تحدثه صراحة، أن قوات الشريف كانت تعيد تجمعها في عشيرة، وأن عدداً كبيراً من المتعاطفين معها قد تجمعوا حول الخرمة وجاؤوا إلى بيشة ورنية والقرى المجاورة الأخرى<sup>(٣)</sup>. وكان يعتبر هذا الموقف شديد الخطورة، وكل ما كنت أستطيع عمله هو أن أرجوه أن يتحلى بالصبر؛ لأنني مقتنع بأن الحكومة البريطانية، نظراً لمجريات الأمور لن تُقصر في كبح جماح الشريف عن ارتكاب المزيد من الاعتداء<sup>(٤)</sup>.

في ذلك الوقت كان يجري تنفيذ قدر كبير من العمل فيما يتصل بالتغييرات الإنشائية في القصر؛ فالفناء بين سكني والقسم الأوسط من القصر كان من الواضح أنه سيتم تغطيته من فوق ليشكل صالة ذات أعمدة، والمساحة الأرضية كلها الآن مليئة بأعمدة قيد التشييد بمستويات مختلفة.

(١) لمزيد من التفاصيل عن داوتي، انظر: روبن يدول، الرحالة الغربيون، ص ٧٧ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) لاطلاع أكثر عن الحرب بين ابن سعود والأشراف في الخرمة وما حولها، انظر: السبيعي، الخرمة، ص ٢٣ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، ج٢، ص ١٨٢ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) المراجع نفسها. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفاصيل عن علاقة بريطانيا بالجزيرة العربية خلال العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، انظر: لوريمر، ص ٥٢٣ وما بعدها، الشهيل، فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة، ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

وهذه الكتل المستديرة من الحجر الجيري توضع فوق بعضها البعض مع وضع طين المونة لتثبيتها معاً حتى تصل إلى الارتفاع المطلوب، وهكذا كانت الأساسات تخترق الأرضية الطينية للفناء حتى الصخور السفلية. وعندما ارتفعت الأعمدة والجدران التي تربط بينها إلى ما يزيد عن طول البشر كان البناء يتسلقها ليواصل العمل، وهناك فتى في الأسفل يرمي له ألواح الصخر وكتل كبيرة من الطين شبه السائل، والذي كان نصفه بصورة عامة يسقط ويتناثر قبل أن يصل إلى الأيدي التي تنتظره في الأعلى. وقد كانت هذه عملية بدائية وشاقة. وتسير أعمال الهدم جنباً إلى جنب مع أعمال الإنشاء بطريقة بدائية تماماً، محفوفة بالخطر على المارة العابرين للفناء إلى أسفل. وكانت مساكن العبيد في الطابق العلوي من القسم الذي كنت أسكن فيه هي أول ما سقط في الهدم. ووضعت كمرات كبيرة من شجر الأثل مقابل الجدار المائل بزاوية (٤٥) درجة، وكانت بعد ذلك تتعرض لضغط بشري، والحركة المتناغمة للعمال تجعل الجدار يترنح ويترنح مرة أخرى إلى أن يتشقق عند نقطة اتصاله بالكمرات. وبعد قليل من الضغط الإضافي سقط الجدار منهاراً بقوة في الطريق الواقع أسفله<sup>(١)</sup>.

وعندما ركبت بعد مشاهدة هذه العملية فوجئت بمن يحييني من الخلف قائلاً: «سلام عليك يا فيليبي!». واستدرت لأجد الملامح الفظة لمترك وهو يبتسم ابتسامة عريضة بالتحية لي. كل هذا الوقت كان غائباً عن العاصمة في خدمة ابن سعود؛ ووصل لتوه عن طريق القصيم مع قافلة عبد العزيز الربيعي، التي تعرضت لهجوم من أسلم وهي تحمل البريد القادم لي والذي راح متجولاً في جزيرة العرب. وفي رحلة خروجه كان قد اجتاز الصحراء مع رفيق واحد فقط، وعندما عبر الدروب

(١) للمزيد عن طرق البناء والتشييد في مدينة الرياض وما حولها، بل في عموم نجد، انظر: النويصر، خصائص التراث العمراني في المملكة، ص ٢١ وما بعدها، وليام فيسي الرياض، ص ١١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

التي لا تزال تحمل آثار سير مجموعة كبيرة مغيرة مسافرة في اتجاه الجنوب التي قد رأياها فعلاً وكان عليهما أن يستخدمتا براعتهما ومكر الصحراء كله لكي يبتعدا عن أنظار عصابة أخرى. وقال: إن قبيلة مطير تنتشر في المنطقة المجاورة لبئر الصفا والعيونة، بينما كانت سبيع في حفر العتش (العتك)، ولكن الصحراء الشرقية كلها في حالة اضطراب. وقد كنت في حينها قادراً على إسداء معروف إلى مترك بالهدية التي حجبتها عنه عند عودتنا من الوادي، وقد أدهشني بعدم طلب المزيد. وشكرني بابتسامة عريضة ودعاني إلى تناول القهوة معه في خيمته بالبطحاء، وهي الدعوة التي استفدت منها في الليلة التالية.

كان العدد الكبير من خيام البدو<sup>(١)</sup>، التي يُقال إنها مشهدٌ عادي يحدث بانتظام عند بداية موسم التمور في الرياض، بمنخفض البطحاء يمثل حقاً منظراً رائعاً، وبقدرٍ عظيم من الصعوبة عثرت في النهاية على مسكن مترك، والذي كان سقيفة صغيرة جداً وكان حوالي ثلثيها مخصص للنساء، في حين كان قسم الرجال مفتوحاً من جانبيه. ويسكن فيها مترك نفسه، وزوجته وطفلاه الصغيران، وهما ابن - ولد تقريباً أيام معركة جراب - وبنيت ذات ربيعين. عند وصولي كان مترك غائباً، ولكن هناك خادمٌ لقسام ابن رواف، الذي انضم إليه في رحلة العودة، يصنع قهوة لضييفين آخرين؛ ولذا كان هناك ترحيب بي. وسألني: «هل سوف تسير إلى القصيم مع ابن سعود أو تذهب إلى الكويت؟». فقلت: «سوف أذهب مع ابن سعود، ويجب أن تعتبرني الآن نجدياً، لأنني لن أغادر هذا البلد». فردّ في ورع قائلاً: «إن شاء الله، سوف تعتق الدين الحق». وسرعان ما وصل مترك مع قليل من الأصدقاء وجلسنا نحتمي القهوة، بالإضافة إلى نوع من الشاي المصنوع من الهيل. ودار النقاش عن حوادث الحملة العسكرية للعجمان في عام (١٩١٦)، والتي شارك فيها كلٌّ من منور ومترك،

(١) كان من القبائل الموجودة في هذا الموسم شمّر، وقحطان، وسبيع، والسهول، والدواسر. (فيلبي). للمزيد من التفاصيل عن هذه القبائل، انظر: الحفيل، كنز، ص ١١٩، ١٣٠، ١٦٧، ١٩٢، ٢٣٣. (ابن جريس).

وعن بسالة نساء البدو. وكان أحد رجال ابن سعود، الذي جرح في الصراع، يرقد محتضراً عندما اقتربت منه امرأة من عجمان وهي تحمل بريقاً من الماء. وقد توسل إليها أن تعطيه شربة ليطفئ بها ظمأه الحارق فصرخت في وجهه قائلة: «أعطيك ماءً، كي أنقذك من الموت حتى تعود مرة أخرى ضد رجالنا؟ لن تحصل على نقطة واحدة وبهذا ضربت ما تبقى فيه من الحياة بعضاً غليظة». (١)

على الرغم من ذلك، فقد أثبتت امرأة من الأحساء أنها مساوية لأختها البدوية. فقد كان هناك رجلٌ عجميٌّ يرقد على شفا الموت قريباً من حافة بئرٍ جاءت إليه تلك المرأة لتأخذ ماءً. فقال لها متوسلاً: «ساعديني على الابتعاد عن هذا المكان، لأنني لا أستطيع التحرك». فاقتربت منه كما لو كانت ستساعده، وفكّت حزام الخرطوش عن جسمه كما لو كانت تخفف عنه الألم، ثم دحرجت الرجل البائس إلى الأمام فأوقعته في البئر وعادت إلى بيتها مفتخرة بالبندقية والذخيرة التي استولت عليها من الرجل. «هؤلاء» كما قالوا، «هن نساء بلدنا». وكنت أعتقد أن زوجة مترك قد تكون من هذا النوع نفسه عندما لمحت ظلها في شمس الغروب وهي تخرج مسرعة من الخيمة مع ابنتها الرضيع، جسمٌ مشدودٌ متماسكٌ بقوة لا ترتدي أكثر من ثوبها الأحمر الفضفاض الوحيد. وكان فهد الصغير، وهو أمل بيت مترك، يلعب حول الخيمة، ولكنه رفض أن يأتي إليّ أو حتى يسلم عليّ، على الرغم من أنه في إحدى المرات دفع في لهوٍ أخته الصغيرة، وهي عارية تماماً وخائفة، إلى وسطنا. وقد دفعها مترك مرة أخرى من تحت الستارة ولاحظت أنها عند ظهورها مرة أخرى كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً أحمر وضيقاً جداً (٢).

(١) للمزيد عن الحرب بين ابن سعود والعجمان عام (١٢٣٥هـ/١٩١٦م)، انظر: الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ٢٢٥، محمد بن عبد الله الأحساني. تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد (الرياض، دن، ١٩٦٠م) ص ٢١٤، الرشيد، ٢١٤، حافظ وهبة، ٢٣٩. (ابن جريس).

(٢) يظهر على فيليبي دقة ملاحظته لتدوين بعض المعلومات التي لا يلقي لها المشاهد بالاً لسذاجتها وعدم أهميتها. (ابن جريس).

عندما استأذنت منهم وخرجت قابلت صدفة سعيد القحطاني، رفيق الرحلة إلى جدة، في مجموعة متجاورة من الخيام، وبعد كلمات قليلة من التحية المتبادلة واصلت سيرتي في المدينة، حيث لاحظت أن المارة، ومعظمهم من البدو وهذه حقيقة، كانوا أشد تجاوباً في الرد على سلامي مما كان عليه الحال عادة. في عصر يوم أمس عندما كنت أركب خارجاً إلى حديقة الشمسية رأيت صدفة سعود العرافة وركبت في صحبته. وكان معه ولده، محمد، الذي يبلغ اثني عشر عاماً، وأمه نورة أخت ابن سعود، يثب على جواد شديد الوثوب وهو يركبه فيما يبدو دون جهد. والولد الكبير لسعود، وهو سلطان، من زوجة أخرى يبلغ السادسة عشرة من العمر في ذلك الوقت وكان غائباً في الجبهة مع تركي. كذلك له أيضاً بنتٌ من نورة، أكبر قليلاً من محمد. وكان سعود نفسه يركب بلا شكيمة أو ركاب فرساً جميلاً من سلالة كحيلة، والتي تشتهر بأنها واحدة من أسرع الحيوانات في البلد. وتعتقد العرب دائماً أن الركوب القتالي يعتبر خطراً إيجابياً في حالة ما إذا أصبح الراكب بلا جواد. إنهم يحملون دائماً معهم عصي الخيزران عند الركوب، ولكنهم لا يستخدمونها أبداً على مطاياهم إلا عند السباق<sup>(١)</sup>.

وقد قيل: إن درجة الحرارة بصورة عامة أشد من الطبيعي خلال هذا الصيف، وكان فصل الصيف الحار يقسم على فترات، كل منها مكونة من ثلاثة عشر يوماً، وترتبط، كل فترة منها بطلوع بعض النجوم. فقد كان فصل الربيع يفسح المجال للصيف أي أوائل الصيف مع طلوع الثريا. ومع الفواصل المذكورة يأتي التبية، ثم الجوزاء الأولى، ثم الجوزاء الثانية، ثم المرزم، يليها الكلبين وأخيراً سهيل. وبعده بثلاثة عشر يوماً يبدأ فصل يسمى (صفرى) ويُنطق (صَفْرِي) والذي إما أن يكون مرادفاً لفصل الخريف أو فترة انتقالية بين (القيظ) أي أواخر الصيف، الذي يستمر

(١) هذه من العادات السائدة عند الفرسان، أو من يقوم باستخدام الخيول في الرياضة أو السباق. (ابن جريس).

من المرزم حتى سهيل، والخريف. إن إجمالي طول الصيفين معاً (٩١) يوماً، وكنا في هذا الوقت في القسم المعروف باسم (مرزم)<sup>(١)</sup>.

عندما عدت إلى البيت شاهدت رجلاً شاحباً بصورة غير طبيعية، وجلده قرنفلي اللون قليلاً حتى ظننت أنه مصاب بالجذام، ولكن منور أكد لي أن حالته ليست مرضاً كهذا لأن الشخص محل التساؤل قد وُلد هكذا، وأنه كان واحداً من حاشية الإمام عبدالرحمن، وظل دائماً في صحة تامة ويُعامل على أنه طبيعي تماماً. ربما كان أمهق. كان الجنيفي ينتظرني للعشاء، وبعد تناول الوجبة فوراً ارتفع الأذان ونهض ليذهب للصلاة. فقلت له: «أنتم أيها القوم تصلون كثيراً، هل سوف تضطرون إلى المحافظة على أداء الصلاة طوال وقت بقائكم في الجنة أيضاً؟». فردّ قائلاً: «لا، فهناك سوف نضطر فقط إلى الاستمتاع بالطعام والخمر والنساء، ويكفي أن نحافظ على أوقات الصلاة في هذه الدنيا فقط». واستمر قائلاً: «وقبل كل شيء، يوجد التعصب الأعمى نفسه في دينكم أيضاً، انظر إلى الكفارات المفروضة على القساوسة والرهبان والراهبات، ليس عندنا شيء من هذا القبيل». فقلت له: إنه في حالتنا يكون الأمر حسب الاختيار الشخصي تماماً<sup>(٢)</sup>.

كان لدى ابن سعود - عندما رأيته في الغد - تفاصيل هجوم آخر للعجمان يريد أن يبلغني بها. إن المتلقم وبعض شيوخ سفران قد أغاروا مرة أخرى على مخيم لسبيع في الديرة، كما يسمون المنطقة الصحراوية بين القطيف والأحساء، عند نقطة على مسيرة خمسة أيام تقريباً جنوب الكويت. ومع ذلك فقد لاحقتهم لسبيع وأحرزوا نصراً، حيث استولوا على (٣٠) جملاً، وقتلوا أحد عشر منها، كذلك قتلوا ثمانية

(١) لمزيد من الإيضاح عن النجوم ومواسم الأمطار، انظر: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة. كتاب الأنواء في مواسم العرب (الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، ص ٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) جدل فيلبي مع إبراهيم الجنيفي حول جواز المحافظة على الصلاة في أوقاتها المحددة، وما يجب على المسلم تجاه هذه الشعيرة وغيرها إنما يدل على جهله بتعاليم الدين الإسلامي. (ابن جريس).

رجال، منهم ثلاثة شيوخ معروفون، عويض بن هادي، وضميد بن جويعة من قبيلة سفران ومحمد بن المتلقم، المشهور بلقب أبو حقطه، وقد استولوا أيضاً على (٣١) بندقية. وكان ابن سعود مسروراً من هذا البلاغ الثاني عن استطاعة قبائله أن تحتفظ بقدرتها ضد أي خطر مثل هذه الهجمات المفاجئة<sup>(١)</sup>. وهو يعزو حالة الموقف غير المرضية إلى الغياب المؤقت للسير بيرسي كوكس عن العراق، وكان يأمل في بعض التحسن إثر عودته، المتوقعة في هذا الوقت تقريباً، إذ كنا ننتظر معلومات عنها في هذه اللحظة. وقال لي: «إذا رفضتم أن تدافعوا عني بصد أعدائي فإنني حر في الدفاع عن نفسي دون أن أتهم بعدم الولاء لكم<sup>(٢)</sup>. وحتى إذا خذلتوني فتأكدوا من أنني لن أحلم أبداً بالدخول في عداوة مع البريطانيين، فهذا قد يساعد الأتراك، الذين قد يعني نجاحهم خرابي. بيد أنني سأقول لكم ما سوف أفعله، سوف آخذ مستحقاتي من العرب؟. بمعنى آخر سوف يعتبر نفسه حراً في الهجوم على الشريف والعجمان. وقال لي أيضاً: إن ابن ضويبي وهو أحد كبار شيوخ قبيلة حرب، قد وصل لتوه الرياض ليدافع عن ابنه، الذي عثر عليه تركي في القصيم يشتري إبلًا لعمليات الشريف ضد الخرمة ووضعه تحت الاعتقال كرهينة إلى أن يتم تقديم (١٦,٠٠٠) جنيه استرليني المدفوعة لحرب لهذا الغرض. وعلى الرغم من ذلك، أقترح أن يلغي أمر تركي وأن يُوجّه بالإفراج عن ابن الشيخ، ولكنه أيضاً سوف يمنع شراء الإبل للشريف من المناطق والأقاليم التابعة له.

كانت الأيام الأولى من أغسطس تعج بالنشاط، بما يبشر بالخير، فهناك إشارات على أن ابن سعود قد هياً بيته في الحقيقة بغرض البدء بداية مبكرة؛ ففي اليوم

(١) لمزيد من الاطلاع على الصراع بين العجمان وابن سعود، انظر: الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ٢٢٥، عبدالعزيز الرشيد، ص ٢١٤، الأحسائي، ص ٢١٤، أحمد عبدالغفور عطار. صقر الجزيرة (القاهرة، دن، ١٩٤٦م) ص ٢٢٢، السعدون، ١٧٠، ١٩٧. (ابن سعود).

(٢) لا شك أن الملك عبدالعزيز كان بينه وبين بريطانيا علاقة صداقة من أجل التصدي لبعض أعدائه في الجزيرة العربية، انظر: لوريمر ص ٥٢٩. (ابن جريس).

الأول من الشهر كانت ترتيباته الإدارية للمناطق الجنوبية قد اكتملت، وكان ابن عفيصان وهو حتى الآن حاكمٌ للأفلاج<sup>(١)</sup>، قد بدأ يتولى إمارة وادي الدواسر. وكان يرافقه عبد العزيز بن دغيثر الذي من المقرر أن يصير خليفته في المنطقة السابقة، بينما ابن معمر، الذي أظهر ضعفاً في السيطرة على العناصر المتمردة في الوادي خلال زيارتي هناك قد أُحيل في الوقت الحالي إلى التقاعد ليعيش حياته الخاصة، وكان بيته في سدوس.

واتضحت علامة أخرى للتحرك القادم عندما طلب الجنيفي قرصاً على أساس أن ابن سعود لم يقدم في هذه المرة المصروفات المدفوعة مقدماً والتي كانت تدفع عادة لأولئك الذين سوف يسيرون معه في رحلته. وسواء كان ذلك صحيحاً أم لا فقد كان يعلم علماً أكيداً وتاماً أن إقراض المال له لا يمكن أن يكون محل تساؤل، ونفّست عن غيظي الطبيعي جداً من توسله الموارد لهدية. لقد كان شخصية غريبة<sup>(٢)</sup>، محبوباً من وجوه كثيرة، ولكن على الرغم من ذلك كانت له أخلاق عصبية تحاول أن تنتزع الشيء انتزاعاً مثل رجل لا تستطيع أن ترى ما يدور في باطنه على وجهه. وفي أوقات كثيرة فشل في أداء خدمات بسيطة تماماً لي؛ لأنه يدرك أن موافقة ابن سعود، التي سوف تأتي في الوقت الملائم بلا نقاش، كانت ضرورية، ولكنه يخشى أن يفاتحه في طلب تلك الموافقة.

وعلى سبيل المثال سألته أن يأتيني بقائمة تضم الثلاثين قرية أو نحو ذلك التي تشكّل منطقة القطيف، وقد وعدني بكل سرور أنه سيفعل ذلك، ولكنه لم يبذل أبداً

(١) سعد بن عفيصان من أمراء الملك عبدالعزيز على الأفلاج، وثم عسير، مات في أبها، لمزيد من التفاصيل عن هذا الأمير، انظر: غيثان بن جريس. أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ص ٦٠، للمؤلف نفسه، عسير في عصر الملك عبدالعزيز (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص ٣٧. (ابن جريس).

(٢) إبراهيم الحنيفي كان موظفاً صغيراً في بلاط ابن سعود، ثم أصبح رئيساً للديوان الملكي، ثم صار فيما بعد (١٣٤٤ - ١٣٤٥هـ/١٩٢٥ - ١٩٢٦م) سفيراً للملك عبدالعزيز في مصر. (فيلبي + ابن جريس).

أي محاولة للوفاء بوعدده. ثم جاء بعده إبراهيم، الذي كانت زوجته تتوقع منه أن يمدّها بمؤن كافية لها ولأسرتها في أثناء غيابه. وقد جاء بتبجحه المعهود ولكن بخجل من ناحية أخرى، مستفسراً؛ لأنه الوحيد الذي تركته دون هدية فيما يخص رحلة وادي الدواسر، فأتى يسألني إن كان غضبي منه قد زال الآن. عندما رأيت لأول وهلة كنت أخشى أنه ربما قد جاء ليعلن أنه سوف يصحّبي في المسير مرة أخرى، وكان ارتياحي عظيماً، بيد أنني رفضت أن أنظر في طلبه، وأضفت أنني الآن أعلم التفاصيل الكاملة لحادثة جابر. فاستشهد بالله أنه لم يكن يدري أنني كنت مهتماً اهتماماً خاصاً بجابر في ذلك الوقت، وكل ما استطعت أن أرد به عليه هو: «بما أنك تعلم أن الله فوقك فكيف تستطيع أن تكذب هكذا؟». فقال مجاباً: «الله يقطع رقبتني إذا كنت كذبت». ودهشت من أنه كيف ينبغي له أن يقسم كاذباً هكذا على نفسه، فليس من النادر في الحقيقة أن يفعل العرب ذلك، لواحدٍ ليس من ملتهم. إن الحلف كذباً بين المسلمين يكون إثماً أشدّ خطورة، ولكن يوجد كثيرون منهم لا يتورعون حتى عن ذلك<sup>(١)</sup>. وواصل كلامه، محافظاً على موقفه، قائلاً: «كل ما فعلته كان طبقاً لعادة العرب». فرددت عليه: «نعم طبقاً لعادة العرب في الكذب والخداع. لقد تعلمت كثيراً الآن». وعندما رأى أن قضيته ميؤوس منها نهض ثم خرج ماشياً في اختيال<sup>(٢)</sup>.

في صباح هذا اليوم نفسه، الثالث من أغسطس، نظرت من السطح الذي كنت فيه على الفناء، الذي كان مليئاً بالإبل وهي تتوخ وتضطرب وتئن بسبب تحميلها استعداداً للسفر، بينما في وسطها توجد الراية الملقوفة مثبتة والتي سوف تكون في

(١) لا نستطيع أن نكذب فيلبي فيما قال. لكنّ هناك أفراداً كثيرين يتصفون بالصدق والأمانة، مقابل أناس آخرين يمارسون الكذب والخيانة. وهذه صفات توجد في جميع الفئات والمجتمعات. (ابن جريس).

(٢) لم يكن فيلبي ذلك الرجل العادي في فهمه للأمور، وإنما كان على دراية جيدة بأعراف وعادات الأمم، وبخاصة سكان الشرق الأوسط، وقد كسب منهم الشيء الكثير أثناء إقامته بينهم لفترات طويلة. (ابن جريس).

المقدمة<sup>(١)</sup>. بعد ذلك بنصف ساعة كان هناك موكبٌ يتكون من نحو (٤٠٠) دابة تحمل الخيام، والمتاع ومواد وأدوات المطبخ قد انطلقت في تحركها، حيث من المتوقع وصولها الجبيله غداً، وهناك سوف ينتظروننا. كان النهار قد أشرق وتقدم دافئاً كالعادة، ولكن سحابة كثيفة تعلقت بين السماء والأرض، وحامت حولنا غيوم سوداء. وساد ضوء أصفر غريب على الأفق، ولقد كان واضحاً وملحوظاً بشدة حتى إن الإمام عبد الرحمن أرسل من يبحث عني ليسألني إن كانت الشمس قد كسفت أم لا. ولم يكن اليوم إلا الخامس والعشرين من شهر شوال، ولكني تظاهرت بالرجوع إلى التقويم البحري قبل أن أعلن أنه ليس هناك سبب يدعو إلى القلق؛ ومن الواضح أن قراري قد قُبِلَ بصورة نهائية.

وفي الختام، بعد مدة طويلة، بزغ فجرٌ آخر أيامي في العاصمة الوهابية<sup>(٢)</sup>، يوم الرابع من أغسطس، الذكرى السنوية الرابعة لاندلاع الحرب العظمى التي لا تزال تزلزل العالم وتهزه بعنف. هنا في وسط الجزيرة العربية كنا بعيدين جداً عن هذا الاضطراب العظيم، ولم أشعر إلا بالارتياح من أن إقامتي المؤقتة شديدة الطول في الرياض قد جاءت نهايتها. وبصفتي ضيفاً في القصر كنت أعامل معاملة طيبة وقُدِّمت لي كل وسائل الراحة على نحو رائع، وفي الوقت نفسه كانت الفرص التي أتاحت لي لتطوير وتقوية صداقة مع ابن سعود - والتي قُدِّرَ لها أن تدوم بلا شائبة خلال جميع التقلبات والتغيرات في السنين القادمة - لا تُقدَّرُ بثمن<sup>(٣)</sup>. بيد أنني طول مدة إقامتي كنت أشعر بشعور التقييد والكبت كما لو كنت سجيناً، والذي لا يمكن للمرء أن يبده إلا بالترحال بحرية في الصحراء.

(١) هذه عادة من عادات العرب منذ العصور الجاهلية وأقرها الإسلام، فالجيش لا بد أن يسير تحت راية واحدة يحملها من يتصف بالقوة والشجاعة. (ابن جريس).

(٢) العاصمة الوهابية: المقصود بها مدينة الرياض. (ابن جريس).

(٣) فعلاً استمرت العلاقة بين فيليبي وابن سعود حتى اضطر الأول إلى البقاء في جزيرة العرب حوالي (٤٠) سنة دون خلالها دراسات وكتباً علمية قيمة. للمزيد انظر: روبين بدول. الرحالة الغربيون، ص ٩٠ - ١٠٢. (ابن جريس).

لقد دامت إقامتي (٤٢) يوماً حتى نهايتها في العاصمة، وطوال هذه المدة لم أخرج إلا أربع أو خمس مرات لتناول القهوة مع مقيمين آخرين، الذين كانوا يخافون من الرأي العام خوفاً شديداً يمنعهم من دعوتي لبيوتهم، على الرغم من أنهم كانوا دائماً ودودين بدرجة كافية عندما يقابلونني علانية أو تتاح لهم فرصة زيارتي في مسكني. ولقد عرفت المدينة وواحتها وسبرت أغوارهما بقدر ما هو متوقع مني، وشعرت بأنني قد فهمت المجتمع الغريب الذي يسكنها؛ لأن حياتهم كانت شديدة التوحد والتماثل لدرجة أنه كان هناك مجال ضئيل من الاختلاف والتنوع بين أسرة وأخرى<sup>(١)</sup>؛ ولقد غمررتي السعادة من أن إقامتي المؤقتة قد انتهت.

على الرغم من ذلك، وفي هذا العصر من آخر يوم خرجت للسير طويلاً مع العبد عطا الله لكي أودع المشاهد المألوفة. كان السوق يغص بالناس يشتررون ويبيعون. هنا كان واحدٌ يبيع مبخرة بالمزاد، ويصيح بأخر سعر معروض قدره سبعة عشر قرشاً، وهناك وقف بدويٌّ حارساً مجموعة من الأغنام البيضاء بينما راح الزبائن المحتملون يفحصونها ويبتعدون ثم يرجعون تارة أخرى. وخلفهم جلست امرأتان على أحد الجوانب تبيعان محتويات سلة بالية كما بدت لي، وهي قطعٌ وشرايط من قماش الخيام وما شابه ذلك. والعاطل يتسكع ذهاباً وإياباً عندما كنا نمر بجوار المسجد الكبير متجهين إلى البوابة الشمالية الغربية، حيث كانت النساء يسحبن الماء من الآبار ذات الفوهات الضيقة المبنية بالحجر<sup>(٢)</sup>، وكان كثيرٌ منها قد غاضت في الطبقة الصخرية التي تقوم عليها المدينة الآن. ويجوار كل بئر درجٌ من

(١) كانت هذه طبيعة الأسر والأفراد أيام قبلي داخل الجزيرة العربية، كان الناس أكثر تقارباً وتعاوناً من يومنا هذا، مع أن الحروب والنزاعات القبلية كانت على أشدها بعكس وقتنا الحاضر الذي خفت فيه بشكل كبير بسبب قوة النظام والمؤسسات الحكومية المسيطرة والقائمة على حفظ الأمن، (ابن جريس).

(٢) الآبار في الجزيرة العربية تحفر في باطن الأرض، وقد تنزل لعشرات الأمتار، وأحياناً يعترض الحفارين بعض الصخور الصلبة القوية، لكنهم يتحايلون عليها حتى يصلوا إلى مطلبهم من الماء الذي يبحثون عنه في جوف الأرض. للمزيد عن حفر الآبار وكيفية تحديد أماكن المياه، انظر: جواد علي، الفصل، ج٧، ص ١٨٢ وما بعدها. (ابن جريس).

الألواح الصخرية وحوض بدائي من الأحجار لتشرب منه الحيوانات. وبعد البوابة كان علينا أن نكافح لنشق طريقنا عبر الأعداد الهائلة من الماعز العائدة لمنازلها، والتي لم يكن بينها إلا خروف واحد والراعي، الذي لا بد منه، على حماره. ولأن ابن سعود قد قصر أهل بيته على شرب لبن النوق وما يماثلها فلم يكن يملك أي أغنام أو ماعز حلوب، ولكن القطعان التي عنده كانت كلها للمطبخ، الذي تحضر إليه حصته اليومية منها. وبعد الماعز جاء رجل كبير في السن يمشي مجهداً عائداً إلى بيته، محنياً تحت حمل ثقيل من الحطب جمعه في الصحراء النائية. وقد تجولنا بعد ذلك بين الحدائق، حيث كانت الفراشات تطير بسرعة فوق نبات الفصفصة<sup>(١)</sup> الجميل، بجوار خزام، وهناك جلست أتأمل المنظر البديع بينما راح رفيقي يتوضأ ويصلي المغرب نحو الشمس التي غربت. وعندما استأنفنا طريق عودتنا للمنزل جاء واحدٌ يجري خلفنا وهو يصيح:

«يا فيلبي». لقد كان ناصر البشري العجوز، أحد رفاقي من حرب وسيد أصحابي في الرحلة إلى الحجاز. وبعد التحايا الوفيرة والودية دخل في الموضوع مباشرة وقال: «انظر يا هذا، لقد تزوجت لتوي زوجة جديدة وغداً سوف أسير مع الشيوخ وليس عندي المال الكافي لتقديم المؤونة لها». «أنت في سنك» لا بد أنه قد بلغ الستين على الأقل، «تتزوج زوجة!!». فردّ قائلاً: «نعم وهي عذراء فوق ذلك». ثم ضحك هذا الأثم العجوز ضحكة خافتة تتم عن الرضا. وقد واصلت سيرتي واقترحت عليه أنه، إذا كان يريد أن يعود بهدية لزوجته الشابة من الغزو فربما كان عليه أن يمنحني مزيداً من السرور بصحبته خلال الترحال أكثر مما فعل منذ افترقنا آخر مرة<sup>(٢)</sup>. وهكذا عدنا للمدينة ودخلناها من طريق حديقة الحوطة ومشينا نحو البيت

(١) الفصفصة: البرسيم. (ابن جريس).

(٢) يتضح من هذه الرواية وغيرها أن فيلبي كان يملك المال الوفير لتسهيل مهامه التي جاء من أجلها في خدمة حكومته بريطانيا، كما أنه كان يسخر بعض سكان الجزيرة لخدمته والوصول إلى مبتغاه من أجل الحصول على ما يعمل من أجله. (ابن جريس).

على مهل وبشكل غير مباشر ونحن نجوب الشوارع الجانبية، وفي إحداها كانت امرأة شحاذة تصيح بأعلى صوتها طالبة للصدقة أمام بيت سعود آل العرافة.

إن بوابات المدينة تقفل كل يوم بعد صلاة المغرب، وفي أيام الجمع خلال صلاة الجمعة، بيد أن بوابات القصر تغلق خمس مرات يومياً عند مواعيد الصلوات، وتظل مغلقة من المساء حتى صلاة الفجر، وخلال هذه الساعات لا يجوز فتحها لأي سبب مهما كان، ولا حتى لابن سعود نفسه دون أن يطلب إذناً بالدخول. هذه كانت أوامره، التي لا يجروء أحد على عصيانها، ومن الواضح أن هذا كان الاحتياط الوحيد الذي رآه ضرورياً للحذر من هجوم عدو محتمل.

في الداخل كانت جدران الفناء الرئيس مطلية بالجبس الجيري الأبيض إلى ارتفاع يبلغ حوالي عشرة أقدام، والحافة العليا من الجدار متوجة بإفريز من الأبراج ذات الدرجات الرقيقة، التي يسمونها شُرف، ويعتقد أنها ذات قيمة أثرية عظيمة. وكان الطين البني الأجرد فوق الإفريز صوبياً بصورة بدائية في أشكال متنوعة، مثل أزهار الزنبق وقناطر بيروز منخفض، وأوراق شجر وما شابهها، بينما كانت النصوص الدينية في كل مكان مدهونة بغير إتقان على الجدران. والأبواب أيضاً مزينة بشكل كبير بنماذج متداخلة من البقع الحمراء والصفراء والزرقاء تتنوع هنا وهناك ببقع محروقة<sup>(١)</sup>.

وهكذا أرحى الليل سدوله علينا، والجميع مستعدون للرحلة غداً. وخلال فترة الصباح، كان رشيد الذي تحاشى رفقتي لمدة طويلة بشكل مبالغ فيه، قد فاجأني عندما جاء داخلاً غرفتي. وقد وبخته بقسوة على إهماله الطويل، فدافع عن نفسه

(١) يظهر في هذه الصفحة والصفحات التي قبلها أن فيليبي أورد معلومات اجتماعية واقتصادية عن حياة الناس في الرياض أيام بداية تأسيس الدولة. ونجد صعوبة العثور على بعض هذه المعلومات في أي مصدر أو مرجع آخر، وهذا مما يدل على دقة ملاحظة هذا الرحالة واهتمامه بأمور خارجة عن مهمته السياسية الدبلوماسية الرئيسة، للمزيد عن مدينة الرياض، انظر: الجاسر، مدينة الرياض، ص ٦٥ وما بعدها، فهد الكليب، الرياض، ص ٣١ وما بعدها، وليام قيس، الرياض، ص ٣٠٧ وما بعدها. (ابن جريس).

قائلاً: «والله، لم ألمس الدخان منذ أن زرتك آخر مرة». وهذا في نظره كان عقوبة كافية، وزف إليّ الأخبار الطيبة أنه هو ومنورٌ سوف يرافقاني في الرحلة. وسرعان ما انضم إلينا الجنيفي على الفطور، وشعرت بأن المناسبة ملائمة لعرض أسباب قلقي وانزعاجي في الرحلات الماضية، والتي كنت أمل تجنب تكرارها خلال الرحلة التي أمامنا الآن. وكان العبيد، الذين يجلسون حولنا عندما كنا نأكل، لم يستطيعوا أن يكتموا ضحكاتهم من بعض الحوادث التي ذكّرتهم بها. وكان رشيد الذي تحلل من قدر كبير من الهموم بسبب قرب مغادرته الرياض ذات الجو الذي يخنق الروح، في حالة صحية أو معنوية ممتازة، وهو يعدُّ بكل شيء دون أدنى نية على أداء أي شيء قد يسبب له إزعاجاً للحظة. وقال لي: إن ابن سعود يستمتع كثيراً بسرده قصص بعض أحداث رحلة الوادي، وإنه كان يستدعيه مرة بعد مرة، وفي إحدى المرات طلبه ليؤانس الأميرة نورة وأخواته الأخريات. وجلس يحكي قصة حوار معين اشتركنا فيه أنا وهو وطامي وناصر بن طلق. وفي هذا الحوار كننا نناقش الدين، وكان طامي قد حسم الجدل عندما أكد لي أن جهنم ستكون من نصيبي في العالم الآخر. وقد أعجب ابن سعود لعدم غضبي من مزحة فظيعة كهذه، لأنني قد رددت عليه قائلاً: «قد يكون ذلك كما تقول، ولكن لا أهتم بذلك، لأنني أعلم شيئاً واحداً وهو أن أول شخص سوف أقابله على باب جهنم سيكون أنت يا طامي، وسوف أكتشف أن الشيطان قد عينك لتخدمني بصورة أبدية أثناء ركوبي ذلولك وتسير خلفي في رحلات لا نهاية لها عبر النار المستعرة». فلم يكن هناك شيء يكرهه أكثر من ركوبي، عندما أكون راحلاً، خلال ساعات القيظ من النهار. وكما توقعت من قبل، فقد شرح إبراهيم استيائي لسيدة على أساس أنه قد صدني عند زيارتي للحوطة والحريق في أثناء عودتنا.

كانت مقابلتي الأخيرة مع ابن سعود قصيرة، لأنه كان مشغولاً بأشياء أخرى. وقد وجدته مع الطفل محيميد، الذي سيرافق والده وبالتالي سيخوض أول تجربة له في الغزو، ولكن هذه الفكرة قد تم التخلي عنها لأن أخاه الصغير، خويلد، كان يبكي من

الحزن عندما يفكر بالافتراق. وسألته: «هل تُعلِّم أطفالك الركوب؟» فرد قائلاً: «لا، نحن فقط نضعهم فوق ظهر الحصان في البداية مع عبدٍ يركب على وسادة توضع وراء السرج، وبعد ذلك بمفردهم، وهكذا من سن مبكرة يصبح الطفل معتاداً على الخيول ويتطور إلى فارس طبيعي». إن ركوب الخيل والرماية مفروضان كواجب على جميع المسلمين بموجب القرآن، الذي يقول: «تعلموا ركوب الخيل والرماية، ولكني أفضل الرماية»<sup>(١)</sup>. والسباحة مفروضة بموجب التقاليد، ومعظم العرب يقدرّون على السباحة. وقد تعلّم ابن سعود نفسه السباحة في البحر بالكويت، ولكن العرب الذين لم يروا البحر أبداً يتعلمونها في القليب (القلبان)<sup>(٢)</sup> بقراهم بل أحياناً يقفزون فيها.

وقد سرى اقتراح في البحرين يقول بأن ابن سعود كان مهتماً بموضوع إعادة فتح الأضرحة والعتبات المقدسة في العراق للحجاج الشيعة بسبب رعاياه الشيعة في الأحساء. وكانت إجابته على سؤالي المتردد جداً عن هذا الموضوع حاسمة حيث قال: «لن أثير أي اعتراض إذا قضيتهم عليهم كلهم عن بكرة أبيهم، وأنا قد أقضي عليهم بنفسني إذا جاءت الفرصة». وعندما سنحت الفرصة بعد ذلك بسنوات في مكان آخر أظهر أن هذه الكلمات لم تقل عبثاً، على الرغم من أن الظروف أجبرته على أن يُلطّف من قناعاته لتتلاءم مع الرياح الباردة للمنفعة السياسية.

إن مهاجم المعتقدات التقليدية التي كان يتحدث عنها بصراحة في (١٩١٨م) سيخضع بعد ذلك لقيود تفرضها عليه قوته المتنامية وإحساسه بالمسؤولية تجاه العالم الإسلامي الكبير الذي ربما يوجد فيه من ينظر إلى المذهب الوهابي<sup>(٣)</sup> كأنه

(١) لم يرد نص في القرآن بهذا القول، أما كتب السنن فقد وجد بها أحاديث كثيرة تحث المسلم على تعلم فنون الحرب لمجابهة أعداء الله. (ابن جريس).

(٢) القليب: هي البئر وجمعها (قلبان). وقد يتعلم الإنسان السباحة في البئر أو العين أو الغدير، وبخاصة في المناطق التي لا توجد بها بحار أو بحيرات. (ابن جريس).

(٣) لا يوجد هناك مذهب وهابي كما يذكر فيليب، وإنما الدعوة التي جاء بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي مذهب أهل السنة والجماعة والمنهج الذي سار عليه السلف الصالح. (ابن جريس).

النواة أو أكثر من ذلك كخميرة قُدِّر لها التأثير في كتلة العجين كلها. بيد أنه قبل أن يحدث مثل هذا التخمير لابد أن يكون هناك حلٌّ لكثير من الخيوط المتشابكة في الأخلاق والتصورات الإسلامية. ولا بد لأشجع قلب أن يجبن أمام الهوة العظيمة التي تفصل حزب علي عن باقي الإسلام<sup>(١)</sup>. في أغسطس (١٩١٨م)<sup>(٢)</sup> بدا أن هناك فرصة كافية نسبياً لأي تطور قد يضع الوهابيين في مقدمة الإسلام القويم وابن سعود الذي ليس لرعاياه الشيعة في الأحساء أي شيء يشكون منه ما داموا يتحاشون التباهي ولفت الأنظار إليهم في أدائهم لطقوسهم الغربية، كان حراً في التحدث بصراحة وازدراء كبير عن البدعة العظمى التي قسمت ذات يوم أخوة الإسلام إلى نصفين وربما تلعب مرة أخرى دوراً رائداً في أزمة مستقبلية من الدرجة الأولى<sup>(٣)</sup>.



(١) المقصود بحزب علي هنا، كما ذكر فيلبي: الشيعة، مع أن علي بن أبي طالب عليه السلام بريء مما تدعى فرق الشيعة اليوم، أو على مر العصور الإسلامية المبكرة والوسيطه. (ابن جريس).  
(٢) (١٩١٨م) يقابل هذا التاريخ بالهجري عام (١٣٣٧هـ). (ابن جريس).  
(٣) يقصد بنصفي الإسلام، أي أهل السنة والجماعة، وفرق الشيعة المختلفة. (ابن جريس).